الطبعة الثالثة

فضاء كالقفص

هيفاء بيطار

A.M.

دار الساقي

http://wahetelkotob.com/

Wed.
21/10/2015
Riyadh

كانت في الرابعة والعشرين، حاملاً في شهرها التاسع حين التقته. قدّمه لها زوجها على أنه صديق طفولته، لكنه من أول شبابه يسافر إلى أميركا. ومن اللحظات الأولى التي التقت عيناها بعينيه اهتزّ كيانها كلّه، كما لو أن زلزالاً مفاجئاً أصابها، وإذا بكل عواطفها الدافئة تجاه زوجها تتبدّد في طرفة عين!

خجلت من نفسها. تحسّست بطنها المنتفخ بالحمل بيديها كمن تريد أن تردّ نفسها إلى الصواب. ما بك يا امرأة ترتعشين كقشّة في مهبّ عاصفة كلّما نظرت إلى هذا الغريب؟! لكنّ حدسها الأنثوي نبّهها إلى أن اضطراباً مماثلاً أصاب الصديق الغريب، فهو لا يستطيع أن يحوّل نظره عن وجهها برغم الوجوه الكثيرة حوله.

هيفاء بيطار كاتبة وروائية سورية. صدر لها عن دار الساقي «امرأة من هذا العصر»، «كومبارس»، «SMS».

$ 6.00

SUB/DPT 832
14/03/13
Virgin MEGASTORE
SAR
23,00 SAR

9 781855 164598
59-8

DAR AL SAQI
دار الساقي

هيفاء بيطار

فضاء كالقفص

قصص قصيرة

دار الساقي

إلى بيروت...

التي أهدتني جناحَي حرِّيّة

المحتويات

كَفَن الأُستاذ ٩

نزف في الروح ٢٢

فنجان قهوة حنون ٢٩

الخطّة الخمسيّة ٣٧

آمنتُ ٤٣

حياة في عنق الزجاجة ٥٣

عواطف دايت ٥٩

قبّـة خضراء نديّة ٦٤

يكفي أن يحبّك قلبٌ واحدٌ لتعيش ٧٠

رحلة درب الآلام ٧٨

صديقة الانتظار ٨٥

مدينة وامرأة ٩٢

المتاهة ٩٦

ضمور ١٠٤
اسمي عـلاء ١١١
صوتٌ يضيء ١١٦
آلام الرجل الطويل قليلاً ١٢٠
سهرة استثنائية ١٢٩
إدمان الذلّ ١٤١
الخِتـان ١٥٠
حبيبي المُعاق ١٥٦
القـاتل ١٦٥
الهزيمة ١٧٢

وهو في أعماقه لا يحترم نفسه ويُدرك أنّه لم يكتب ما يجب أن يُكتب. أحسّ أنّه يحتاج إلى القهوة، إلى كثير من القهوة كي يشحذ طاقته الذهنيّة في الكتابة عن الديكتاتور. انتظر الماء كي يغلي، شرد ذهنه في الماضي البعيد مُدركاً أنّ كلّ ما قام به في الواقع هو حَرف طاقة خياله وتفكيره ممّا يجب كتابته إلى كتابة مواضيع هامشيّة تافهة لا قيمة حقيقيّة لها. هل تجرّأ وكتبَ عن زميل شبابه الذي اهترأ عشرين عاماً في السجن لمجرد أنه يُفكّر بطريقة مغايرة لتفكير الديكتاتور!

تذكَّر الآن أنّه، لخسّته ونذالته، لم يكلّف نفسه بزيارة صديق طفولته بعد خروجه من السجن. خاف أن تؤثّر تلك الزيارة على نجاحه الأدبيّ القائم على تزلّفه للسلطة. وحين لمحه ذات مرّة في الشارع خاف أن يتواجها فاختبأ كلصّ في أحد الدكاكين متظاهراً بأنّه يفتّش عن غرضٍ ما! جلس مع كوب القهوة مدقّقاً بما كتبه عن الديكتاتور. أدهشه مخزون ذاكرته الذي اعتقد أنّه نسيه. تذكّر كيف كان الديكتاتور يتسلّى في شبابه بأن يأمر رجالاً كهولاً يجلسون في مقاهي رصيف بأن ينبطحوا أرضاً تحت الطاولات ثم يُخرج مسدّسه ويُطلق الرصاص في الهواء. وذات مرّة أصاب شابّاً يقف على الشرفة وقتله، ولم يجرؤ أحد على أن يكتب عن تلك الحادثة في الصحف، حتى أنّ أحداً لم يُعزّ أهل القتيل!

تذكّر العائلات التي هجّت من البلد سرّاً لأنّ الديكتاتور أراد منح بناتها شرف أن يكنّ محظياته... تذكّر مئات الشبّان الذين زجّهم في السجون وسحقهم من التعذيب لأنّهم تجرّؤوا وآمنوا بشعارات خطيرة: حقوق الإنسان، الحرّيّة، العدالة...

كَفَن الأُستاذ

انتهت قصّتي معه من دون خاتمة، فقد انفصلنا من دون مواجهة. لم نتبادل كلمة واحدة، ولم نكلِّف نفسينا، أن ينظر كلٌّ منّا إلى الآخر نظرةَ الوداع الأخيرة. كنتُ قد حزمتُ أغراضي على عَجَل، ونقلتُ الحقيبتين الثقيلتين، من غرفتي إلى الصالون. وعلى الرغم من اختناق روحي بالغضب والحقد، فإنّني تنبّهتُ إلى دفء شمس الخريف الصباحيّة، التي تغمرُ المكان بدفء لطيف، جعل قلبي يلين. أدركتُ كم سأفتقد المكان. أمّا هو ـ الذي يثقل وجوده على قلبي كصخرة ـ فأستميت لأمحوه من ذاكرتي.

كان يعرف أنّي أُغادره مُستاءة. تجاهلني وهو يمارس طقوس إفطاره نفسها، والمذياع إلى جانبه، يستمع إلى نشرة الأخبار الصباحيّة في محطّات عدّة. كنتُ أحشو أُذنيَّ بسدّادات مطاطيّة، كي أُخفِّف جعير المذياع. ما ذنبي إن كان سمعه ضعيفاً؟ ومن غير أن أنظر إليه مواجهةً، لمحتُ صورة وجهه منعكسةً في النافذة. وجه قاسي الملامح، كأنّه تجمّد. ضغطت زرّ المصعد، وفي انتظار وصوله إلى الطابق العاشر، تأمَّلتُ الشقّة الفاتنة، بحنان كبير، عارفةً كم سأفتقدها. نقلتُ أغراضي إلى غرفة المصعد.

تركتُ بابه مواربا، وعلى طاولته التي تناثرت عليها أوراقه، وكتبه، رميتُ له مفاتيح الشقّة.

قلتُ بصوتٍ عالٍ، محاولةً أن أكظم غيظي: ها هي المفاتيح.

لم يلتفت، ولم يردّ بكلمة. تابع طقوس إفطاره. صفقتُ الباب بقوّة، صفقةً أشبه بالصفعة، تمنَّيتُ لو أوجِّهها إلى وجهه، وأسرعتُ أهبط إلى أرض الواقع، وأنا أُردِّد بنفاد صبر، عبارة بدت لي لانهائيّة: الحمد للّه ارتحتُ منه. الحمد للّه ارتحتُ منه.

عبرتُ الشارع العريض، وأنا أجرُّ الحقيبتين الثقيلتين، لكنّي وجدتُ تعبي لذيذاً، فهو يعني تحرُّري منه. لا يزال قسم من خيالي يتفرَّج عليه شامتاً. سيضطرُّ إلى جلي الأطباق، فالجارية - زوجتُه - هجّت منه، ومن عالم أنانيّته المرعب.

بدأ مطر كسول بالتساقط، أنعش وجهي المتصلِّب بالغضب. أحسستُ بجوع، ورغبتُ في شرب القهوة. لم أنتبه إلى ارتعاش يدي من التعب، إلاّ حين هممتُ بحمل الحقيبتين، إلى صندوق التكسي. أسرع السائق الشابّ، يساعدني وهو يحدِّثني بصوتٍ متعاطف: هل يُعقل يا أختي، أن تحملي الحقائب وأنا موجود؟

كم كنتُ أحتاج إلى صوتٍ إنسانيٍّ، صادق، وحقيقيّ. ومن مقعدي الخلفيّ، تأمَّلتُ بحرِّيّة، وجه السائق المنعكس في المرآة الأماميّة للسيّارة. قدَّرت أنّه في الثلاثين، ما أجمله... عيناه زرقاوان، وأهدابه كثيفة. أنفه مستقيم، وشفتاه رقيقتان. أحسستُ كم ابتعدتُ عن عالم الشباب النَّضِر، فكلّ أصدقاء زوجي كهول. وجدتني رغم مصيبتي الطازجة، مفتتنةً بعالم الشباب. تمنَّيتُ لو

أُلامس الوجه الفتيّ. أتحسَّسه بجلده الطريّ المشدود: العنق الرشيق المشدود، والشعر الكستنائيّ المجعّد. يا لعطر الشباب الفاتح للشهيّة على الحياة...

سمحت لي نظّارتي الشمسيّة السوداء بتأمُّل الشاب بحرِّيّة. أتراه متزوِّجاً؟ تفحَّصتُ أنامله الرشيقة، فلم أجد خاتماً. أحسستُ بالرضا، لكأنّي معنيّة بحياته. رغبتُ بقوّة في التحدُّث إليه. قلتُ له: من حسن الحظّ، لا يوجد ازدحام في الطريق اليوم...

قال: بالطبع، بيروت لا تزال نائمة، فاليوم أَحَد.

لكنِّي تمنَّيتُ لو يكون الازدحام على أشدِّه، كي أستمدَّ شيئاً من العون، والدفء، من وجه السائق. لم أنجح في تخفيف حالة الغيظ والتوتُّر في نفسي. وحين وضع السائق الحقيبتين عند باب الفندق، تمنَّيتُ لو أملك الجرأة، وأتوسَّل إليه، أن يمضي معي بعض الوقت لنتحدَّث عن أيِّ شيء.

استقبلتني موظّفة الاستقبال بحفاوة مصطنعة، وخيَّرتني بين غرفة في الطابق الرابع، أو أُخرى في الطابق السابع.

قلتُ لها: أُريد الأكثر هدوءاً.

ومن شرفة غرفتي في الطابق السابع، لم يبدُ من بحر بيروت سوى شريط رفيع بعيد. أخذتُ نَفَساً عميقاً، وجلستُ على المقعد في انتظار القهوة والفطور. صفعني خيالي بصورة زوجي الكهل، يشرب قهوته على الشرفة الفسيحة، والبحر سخيٌّ أمامه. وعلى الرغم من كرهي الصريح له، أحسستُ بشفقة حقيقيّة عليه؛ تلك الشفقة التي يثيرها الكهول في أنفسنا.

وضع النادل صينيّة الفطور الشهيّ، على طاولة صغيرة على الشرفة. شكرته، وأنا أنقده بخشيشاً، جعله ينحني لي. ومن أوَّل رشفة قهوة، سالت دموعي بسلاسة، كما لو أنّها تفيض من بحيرة راكدة في أعماقي. رحَّبتُ بالبكاء، فهو سيساعدني على التحلُّل من توتّري.

غريب كم تعطيني القهوة نشوةً روحيّةً حقيقيّة. ومع الفنجان الثالث، حاولتُ أن أستوضح فكرة تعذّبني، لكنِّي لا أجد إليها سبيلاً. كان عليّ أن أبدأ في فهم حالتي انطلاقاً من فكرة، لكن لِمَ تستعصي علي هذه الفكرة وتعاندني؟

لا يجب أن أتجاهل تعبي وتوتُّري. فأنا لا أعي من ذاتي سوى قلبي المشروخ بحبٍّ كبير. تُرى من أين أبدأ؟ لكن هل من الضروريّ، أن نبدأ دوماً من نقطة معيّنة، كي نستجلي أمراً يعذّبنا؟ الخبز الطريّ أشعرني بالجوع. أكلتُ بشهيّةٍ زبدةً مع مربّى الفريز. صفعني وجهه، يحدِّق بي بنظرات مؤنِّبة، بوجوب ابتعادي عن السكَّريّات والدسم. أدركتُ أنّني سأحتاج إلى زمن طويل، كي أمحو صورته، وتحديداً لأتخلَّص من سموم هذا الرجل.

هل الرجل سمٌّ؟ يجب أن أبرأ منه. وجدتُ نفسي أنتفض فجأة. أشمّر عن ساعدي، كما لو أنّني سأستأنف شجاراً. أحدّق بأوراق بيضاء على الطاولة... وجدتني أكتب من دون تفكير: أنتظر كرهك لأردَّ عليه بكرهٍ أكبر.

فاجأتني هذه البداية. تحرَّرتُ من ثيابي. فتحتُ حقيبتي وأخرجتُ قميصاً فضفاضاً أزرق اللّون، يعطيني هدوءاً وراحة. وعيتُ كم أنّ ألم روحي حادّ. تردَّدتُ، هل أبتلع حبّة مهدِّئة، أم

أتحمّل أوجاعي النفسيّة. لكنّي تنبّهتُ إلى أنَّ الألم أعطاني حساسيّة مرهفة، أشبه بذكاء خاصّ. حدستُ أنّي سأتمكّن من تشريح وضعي بدقّة هائلة، كما لو أنّني أُدخل نفسي تحت المجهر الإلكترونيّ.

ثمة رغبة عارمة تعتمل في نفسي، بأن أوجِّه إليه ضربة قاضية. وقد بدأتُ تلك الخطوة بالفعل، حين تركته في تلك الطريقة.

لم يسطِّر قلمي سوى تلك العبارة، رغم رغبتي العظيمة في الكتابة. لكنّي تذكَّرت تعبي، وتوتُّري ليلة أمس، وكيف لم أستطع البقاء في سريري، بل قمتُ إلى الشرفة، رغم البرد، وشرعتُ بالمشي على طول الشرفة، ونظري معلّق بالموج الفضّيّ الملتمع بنورٍ شاحب لقمرٍ وحيدٍ مثلي.

مشيتُ لساعات إلى أن أطلّ الفجر المزرق الناعس، لدرجة آمنتُ بأنَّ هذه الشرفة، صُمِّمتْ بذلك الطول، من أجل امرأة وحيدة ومخذولة... لم يخفِّف المشي من غلوء غضبي، وحقدي، بل إنَّ ذاكرتي اللَّئيمة، أخذت تصفعني بصور شديدة القسوة، والإيلام، من علاقتي معه. وحين دخلتُ غرفتي أخيراً، لأنَّ مفاصلي آلمتني من المشي والبَرْد، أدهشني وجهي. حاولتُ أن أتعرَّف إلى هذا الوجه المرتسم في المرآة. وجه منهك، وقد بلغ ذروة عدم التحمُّل. عينان واسعتان بنظرة قاسية. كنتُ متجلِّية كلِّيّاً في تلك النظرة المصمّمة الفاقدة الصبر، والتي تنذر بكارثة. نظرة من يُطلُّ على شفير هاوية، ويتحدّى الفراغ السحيق تحته.

صفعتُ وجهي من شدّة غضبي. التهبَ خدِّي ألماً، وأخذ

جسدي الضئيل يرتجف. كنتُ راغبة في الصراخ والبكاء، حتى تنشقّ حنجرتي. لكنّني بقيتُ خرساء، أحدّق بوجهي في المرآة. انتهى مخاض الألم، والغضب، حين قرَّرتُ جمع أغراضي وهجره.

استلقيتُ على السرير. أغمضتُ عينيّ، شاعرة كيف يدغدغ النعاس أطرافي وأهدابي. ابتسمت لصورة السائق الوسيم، الذي أوصلني إلى الفندق، وتخيَّلتُ كيف تغازله حبيبته. داهمني غثيان وأنا أتذكَّر جسد زوجي العجوز، كم هو مترهِّل ومقرف، ياه... كيف تزوَّجتُه، وعمره يزيد عمري بأكثر من ربع قرن.

سلطان النوم يغطِّيني. أسدلتُ الستائر على ذاكرتي، ونافذتي. وقبل أن أغفو، أدركتُ أنّني للمرّة الأولى، صرتُ أمتلك موهبة النظر إلى الحقيقة وجهاً لوجه.

هل استفاقت ذكرياتي وأنا نائمة. هل غفوتُ حقّاً، أم استسلمتُ إلى شريط الذكريات؟ أتفرّج عليه للمرّة الأُولى، بعد أن زالت الغشاوة عن عينيّ، ولم يبقَ لي أيّ وهم أخدع به نفسي. لكنْ لِمَ تبدو تلك الذكريات غريبة، كأنّها لا يمكن أن تكون لي؟ ماذا فعلتُ طوال سنوات سوى خداع نفسي؟ كنتُ، أرى حقائق، فأجبر نفسي على التشكيك بها، فلا أثق بما أرى!

انتصر عليَّ، حين جعلني أؤمن بأنّي لا أستطيع الاستغناء عنه. وقد طواني بين جناحيه، من اللّحظة التي قرَّرتُ فيها أن تكون أُطروحتي في التخرُّج من قسم الفلسفة عنده. لا أنكر أنّه فتنني بثقافته الواسعة، وبالمراجع الغنيّة التي دلّني إليها. كنتُ أُسحَر بلهجته التي لا تحمل أيّ انفعال، فيبدو لي بعيداً، منيعاً، من

الصعب الحصول عليه. كان يشجّع الطلاب على زيارته في مكتبه الخاصّ، ليس لرغبته في مساعدتهم، بل لسبب أعمق أدركته متأخِّرة. فهو يريد أن يُجمع كلُّ الناس على الإعجاب به. وكان يتعامل مع مَنْ حوله، بأُبّهة، وفخامة، كأنّه يعتبر وجود، بين الناس شرفاً لهم. جذبني غموضه، وتعاليه، كما يجذب النور فراشة ليحرقها. وابتدأ بيننا ما سمّاه رفاقي غرام الطالبة بالأستاذ. حذّرني المقرَّبون من فارق العمر الكبير بيننا. لكنّي كنتُ أشعر بالزهوّ، كونه اختارني لأكون زوجته.

انتقلتُ إلى عالم الكبار والمشهورين. وصرتُ زوجة المفكِّر، والأستاذ الجامعيّ الشهير. عاملني في السنوات الأُولى من زواجنا، كما لو أنّي جوهرة، يحرص على صيانتها. وبلغت حاجته إليّ، كحاجته إلى الماء والهواء، فلم يكن قادراً على فراقي، بل كان يصحبني معه إلى كلِّ المؤتمرات التي يحضرها. ويعرِّفني بشخصيّات شهيرة، لم أحلم يوماً بأن ألتقيها.

كان أسلوبه في التعامل معي ذكيّاً، لدرجة صرتُ أشعر باستمرار، بأنّني مَدينة له في كلِّ شيء. ثمّ بدأ موضوع الحمل يؤرقني. جميع الأطبّاء الذين استشرتهم، أكّدوا لي سلامتي، وقدرتي على الإنجاب. كنتُ أرجوه أن يعرض نفسه على الأطبّاء، فينظر إليّ نظرات استخفاف، ولا يردّ بكلمة. ثمّ تحوّلت نظرته إليّ، إلى نظرة عدوانيّة لاشعوريّة، وبدأت تصلني همسات بأنّ طلاقه من زوجته الأُولى كان بسبب عقمه.

دخلتُ مرحلةً جديدةً في حياتي معه. صرتُ أتأرجح بين الأمل واليأس، وبين اليأس والأمل باستمرار. لم أكن أصدّق أنّ

حياتي يمكن أن تستمرَّ من دونه. فهو في قلب وجودي، وقد شُغفتُ به وآمنتُ بعظمته. كان يحاول إقناعي بأنَّ موضوع الإنجاب تافه، وبأنَّنا زوجان خُلقا لغايات نبيلة! لم أكن أملك الجرأة لأصرخ في وجهه: ليس هناك أروع من إنجاب طفل. لكن نمط حياتي اللاتقليديّ معه، والأسفار، ولقاء المشاهير في عالم الفكر، والثقافة، جعلتني أُوهم نفسي بأنّي أعيش بطريقة راقية، غير تقليديّة.

ثمّ فوجئتُ: إنَّ حبِّي له عاد إلى الانتعاش، لسبب وحيد، أنّه خاسر، ولأنّه لم يعد يملك أيّ إغواء يقدِّمه إليّ. وفهمتُ أنَّ الشفقة أقوى من الحبِّ بما لا يُقاس.

كنتُ في الثانية والثلاثين من عمري وهو في الستِّين، وقد داهمه العجز الجنسيّ كُلِّيّاً، في حين كانت رغباتي ناضجة، كثمار تنتظر من يقطفها.

لم أفهم كيف تغيّر تعامله معي، فقد أخذ سلوكه منحى غريباً: السخرية من كلِّ أفكاري وطروحاتي. حارب رغبتي في الحصول على الدكتوراه، لكنّي صمَّمتُ على الدراسة، فصار صمته يزداد ثقلاً. كان له أسلوب مدمّر في الصمت. صمتٌ مزدرٍ يدوم أيّاماً. كنتُ أشرف على فقدان صبري من صمته العنيد. حاولتُ أن أُليِّنه بحبِّي واهتمامي، فكان يزداد تصلُّباً... وكنتُ أتفرّج عليه كيف يتحوَّل إلى إنسان صامت، صمتَ القبور، ولا يُضمر أيّ مودّة لأحد! كان يصغي إلى كلامي حول وجوب بثّ الدفء في علاقتنا، ووجهُه يعبّر عن احتقار ساخر. ويُفهمني بطريقة ما، أنّ كلَّ ما أقوله، لا يُحدث فيه أيّ تأثير. ثمَّ بدأ ينعزل عن الناس، متضجِّراً من كلِّ أصدقائه. أظنّه بدأ ينعزل لإحساسه بأنَّ نفوذه،

ووهج سلطته على مَنْ حوله، بدآ في الانطفاء، فلم يعد يملك إغواءه القديم.

ثمَّ اقترح أن يستقلَّ بغرفة نومه. لم تفلح جهودي في جعله يُعالِج عجزه الجنسيّ. نفاني خارج حياته، عندما أصرَّ على أن يكون لكلٍّ منّا غرفته الخاصّة، وصار لا يتوجَّه إليَّ بالكلام إلاَ نادراً. لكنَّ نظرته المتفحِّصة، والمتنبِّهة، ظلَّت تلاحقني طوال الوقت.

دخلت علاقتي معه في نفق الضلال والذهول ـ كما أحسستُ ـ صرتُ أنتبه كيف أبدّل تعبير وجهي ما إن يأتي. وتحت مظاهر الأُلفة، والحبّ، الذي أُظهره له، كان يتفجّر كرهي العميق لشخصه، كما لو أنّي مُصابة بدُمَّل تحت جلد مُعافى. ثمَّ بدأ شعور محيّر بالخوف منه، ينمو في أعماقي. خوفٌ غامضٌ، سرِّيّ، لا أفهم كنهه. ما الذي يخيفني فيه؟ صمته؟ تجهُّمه؟ ما دهشني، أنّه صار يمضي إلى شيخوخته بخطى سريعة. ثمّ صار يبتكر أساليب لتعذيبي. فهو يحسُّ بلهفتي إلى الحديث كي نخرق رصاص الصَّمت بيننا، فيهمُّ بأن يقول شيئاً مُلاحِظاً تنبّهي السعيد، لكنّه يتراجع ويعود إلى الصمت. صار من مهامي تحليل صمته. فوجهه المُتعالي الصامت، والمتخشّب، يعني رسالة خفيّة يرسلها إلى من حوله. رسالة تعني: امدحوني، وعظّموني، فأنا أعشق المديح. ومن حسن حظِّه، أنَّ الكثير من تلامذته، كانوا يمدحونه حَرجاً، ولباقةً، حين يجدونه مثل أبي الهول، جاثماً بينهم، مجلَّلاً بصمت الرخام.

ما عدتُ أعرف هل يفيد الحديث معه أم لا؟ صرتُ أتساءل، لماذا يتعمّد أن يُهينني بلا داعٍ. فأحياناً أُجْبِر نفسي على أن أكون

سخيّةً معه بعواطفي. فآمر وجهي بأن يُشرق في وجهه المتجهّم، وأهمُّ بأن أُقبّله قبلةَ الصباح، فيبعدني عنه، ويسألني بسخرية: هل نظّفتِ أسنانك؟ أكظم غيظي، وتنفلت شتائم خرساء من روحي، ويخطر لي لو أردُّ ساخرة: أسناني نظيفة معافاة، وليست مثل أسنانك المتآكلة مع العمر والتدخين.

ذاتَ مساء، ألححتُ لمرافقتي إلى حضور فيلم سينمائيّ. ووسط الزحام، والعتمة، شعرتُ بيده القاسية تدفعني بقسوة وحقد في ظهري، حتّى كدتُ أسقط. وحين التفتُّ إليه متألّمة، ومباغتة من تصرُّفه، تجاهلني كلّيّاً، ورفض أن يعلّق بكلمة حول دفعه لي، بتلك الطريقة الوحشيّة.

إنّه يسعى إلى تدميري روحيّاً ونفسيّاً. وعلى الرغم من أنّه لم يحدِّثني أبداً عن زوجته الأُولى، إلاَّ أنّي عرفتُ أنّها أدمنت على الكحول، بسبب إهماله لها. كان يمكن أن أبقى مضلَّلة، أسيرة شعور بأنّه رفعني إلى فوق، وأنّني مَدينة له طوال حياتي، بمستوى المعيشة الراقي، الذي عشتُه، إلى أن حلّ يومُ مناقشة رسالتي للدكتوراه. فتعلَّل بالمرض، وطلب إليّ ألاَّ أذهب. اعتقدتُ أنّه يمزح. كان وجهه مثل قناع، وأخذ يسخر من الأساتذة، الذين سيناقشون رسالتي، مُتّهماً إيَّاهم بالغباء والسخف.

تنبَّهتُ، لأوَّل مرّة، إلى أنَّ السمة الأساسيّة في طبعه هي الحسد، فهو لا يقدر على مدح أحد، ويُميته شعور الندِّيّة. إنَّ غروره رهيب حقّاً، فهو يعتبر نفسه إلهاً، ويحب أن يتصوَّر الناس حوله، أقزاماً. ولم يعد يشعر نحوي بأيِّ شعور، سوى تلذُّذه بأن يُظهر لي الاحتقار!

كان يتكلَّم كعادته، بلهجةٍ لا تحمل أيّ عاطفة أو انفعال. كنتُ أجهل زخم المشاعر المضطربة التي تعتمل في داخلي. فأنا لا أرى إلاَّ السطح. لا أرى إلاَّ وجهي المُحتقن بالغيظ، وعدم التصديق. ولأوَّل مرّة سمحتُ للهيب الكره، بأن يسطع في عينيّ، فاستفاق حقدي كاملاً بهيّاً، حين صمَّمتُ على نيل الدكتوراه. وصلَتْه سمومُ حقدي فارتعش، لكنّه حاول أن يسيطر على الموقف، فاتّخذ مظهر مَنْ يرغب بحمايتي ولا يرضى أن يمنحني أساتذة تافهون الدكتوراه!

جلستُ مقابله على الكرسيّ الهزّاز. رفعتُ تنّورتي عالياً. داعبتُ فخذيّ بجُرأة وقحة، وأنا أنظر إليه بسخرية. لم أرغب يوماً في أن أكون لئيمة كما كنتُ يومها. سلوكي أشبه بصفعة قاتلة، وحكم قيمة على عجزه ونهايته.

استمررتُ أُداعب فخذيّ باستفزاز، جعل أنفاسه تتسارع من الذلّ. قلتُ له: سيُدهَش الحضور لغيابك.

وعلى الرغم من مظهر اللاّمبالاة والسخرية، الذي ينجح دوماً في تصنُّعه، فإنّني أحسستُ بخوفه الحقيقيّ من خسارتي. لعلّه أدرك أنَّ طاقتي على خداع نفسي، وتحمُّله، قد نفدت، وأنَّ هذا الزوج المهمّ، الذي كنتُ أتباهى به، قد تحوّل إلى رجل حاقد، معقّد، لا يحتمل أن تنافسه زوجته في علمه ومكانته. فهمت أنّه رغب في أن أنمو إلى حدٍّ معيَّن يحدِّده هو. هو الذي يحدِّد سقف نجاحي، أمّا أن أتساوى معه، أو أتفوَّق عليه، فشيء فوق طاقته.

عرفتُ بالصدفة أنّه يمزّق دعواتي إلى حضور المؤتمرات العالميّة في الفلسفة وعلم النفس، ويعتذر نيابةً عنّي عن حضور

تلك المؤتمرات، بينما يسافر وحده مصرّاً على عدم اصطحابي متعلّلاً بأعذار تافهة.

عبرتْ جسدَه رعدةُ خوف. إنّه يعرف أنَّ غيابي من حياته سيَنزل عليه نزولَ الصاعقة، لكنّه يرفض أن يلين ويعتذر ويعاملني برقّةٍ ولطفٍ لأنَّ غرورَه المتصلّب يمنعه من الاعتذار. إنّه مستعدٌّ لأن يدمّر حياته ويعاني مرارةَ الفقدان والهجر على أن يتوب عن غروره.

وها أنا أستعمل أسلوبه نفسه، فأحدّثه بصوتٍ لا يحمل أيّ انفعال، صوت متكبِّر ميت بأنّي أُريد أن أحقّق ذاتي وأنّي أنتظر قبولي كأستاذة محاضرة في جامعة البحرين.

لم أبالِ بنظرته المهدِّدة الحاقدة التي انغرست في وجهي حين قلتُ له إنَّ مقالاته كلّها، وكتبه عن الإيمان بقدرات المرأة وتحرُّرها، مجرَّدُ كلامٍ كاذبٍ وسخيف، وإنّه في أعماقه يسعى إلى تدمير تفوُّق المرأة.

أحسستُ بأنّي أهوي، فانتفضتُ مُجفلة، هل كنتُ أحلم؟ أم أستعيد لقطات من حياتي على مهل؟ وفي هذه لغرفة الغريبة أحسستُ بأمانٍ افتقدته لسنوات، فكلُّ شيء هناك - حيث يسكن المفكِّر الشهير - مُشبَع بروحه الميتة.

أعطتني عتمةُ الغروبِ الرؤيةَ، وبدت لي حياتي معه أشبه بسحابات من فراغ... لماذا بقيت معه تلك السنوات كلّها؟ ألأنّي أقنعتُ نفسي بأنّه قَدَري؟ هل آمنتُ بأنّه عظيم إلى درجة أنّي لا أتحمَّل التشكيك بعظمته مهما بدر منه؟!

كم كنتُ مُضلَّلة لأنّني اعتقدتُ أنّي سأبلغ سموّاً ورُقيّاً نفسيّين وفكريّين بزواجي به! لكنَّ السنوات تتابعت ولم أصل إلاّ إلى ظلمة روحه. . . من العار حقّاً أن أكون تعيسةً إلى هذه الدرجة، وأن أتجاهل حاجتي إلى الإشباع العاطفيّ والجنسيّ، لكن هل نفع الندم يوماً؟

خرجتُ إلى الشرفة. شهقتُ مفتتنةً بروعة الغروب. كانت الشمس مرآة روحي ببهائها وكبريائها. روحي تستفيق من غيبوبتها. وعيتُ بعمق حرّيّتي. أحسستُ روحي رشيقة كسنبلة، ضحكتُ من كلِّ قلبي، فنومي لساعات طويلة دليل استعادتي لعافيتي النفسيّة. دبَّ فيّ نشاطٌ كبير، ارتديتُ ثيابي بنفاد صبر ولم أنتظر حتّى أُسرِّح شعري أو أتزيَّن. وحين لم يلبِّ المصعد ندائي المتلهِّف هبطت الدرج بقفزاتٍ كبيرة. بحلقَتْ فِيَّ عاملة الاستقبال بقلق وهي تراني منطلقةً كالسهم خارج الفندق، لحقني صوتُها المتلهِّف: خير يا مدام هل. . .

قلتُ: تأخَّرتُ عن موعدٍ مهمّ.

ـ هل تريدين مساعدة؟

ضحكتُ منتشية، لوّحتُ لها وأنا أقفزُ إلى الرصيف. . .

لا يا عزيزتي، لا أحتاج إلى مساعدة أحد، لأنَّ موعدي في اللاَّمكان، حيث سأنزع جلدي القديم وأجعله كفناً للأستاذ. . .

نزف في الروح

لا مفرّ من الإصغاء إلى صوت العقل، فلولاه لما تَمَيّز الإنسانُ عن الحيوان. هذا ما كنتُ أُردِّده لنفسي وأنا أنتظر دوري في مقهى رصيف لأطلب القهوة المثلّجة مع الحليب. أحسستُ بطعنة ألمٍ مباغتة في قلبي، فهذه هي المرّة الأُولى التي أكون فيها وحدي. في كلِّ المرّات السابقة كان برفقتي، وهو مَن دعاني لأوَّل مرّة إلى هذا المقهى. أجبرتُ نفسي على السخرية من ألمي وأكَّد لي صوت العقل الرصين والذكيّ أنَّ نُوَبَ حنينٍ مخادعٍ سوف تنتابني بين حين وآخر، إلى أن يتخلّص دمي كلّيّاً من سموم حبٍّ تعيس.

أخرجني النادلُ من شرودي وسألني: ما قياس كوب القهوة المثلَّجة الذي تريدين؟

تذكّرتُ أنّه كان يطلب القياس المتوسّط وأنا أطلب أكبر قياس، وبصوتٍ مرتعش بالوجد قلتُ: قياس وسط لو سمحت.

كم أستمتع وأنا أتفرَّج على طقوس تحضير القهوة. أعطاني النادلُ الكأسَ البلاستيكيّة الكبيرة. حالفني الحظّ في الجلوس في

المكان المفضّل لديَّ قرب النافذة العريضة حيث أُمارس هوايتي المفضَّلة: التفرُّج على الناس في الشارع... مقعده فارغ. كم تؤلمني تلك الحقيقة التي تبدو لي غير معقولة. أسرع عقلي يتجسّد على هيئة شخص أنيق، ذكيّ النظرات، إنّما لا تحمل نظرته أيّ عاطفة، جلس في مقعد الحبيب الغائب، بادرني بالكلام وهو يفرك يديه ببهجة المنتصر: الطقس بارد وممطر، وأنا أُجنّ بهذا الطقس.

لم أردّ، فلستُ راغبة بالكلام. كنتُ أُتابعُ مسيرَ السائل المثلَّج في جوفي، أحسُّه يطفئ حريقاً عميقاً في أعماقي.

استطرد عقلي كلامَه: إنّه طقس الميلاد، ما أجمل زينة الشوارع هذه السنة!

تذكَّرتُ أنّني كنتُ برفقته ليلةَ الميلاد السابقة، اشترينا أشياء كثيرة، لا أذكر منها سوى البهجة. وفي البيت الدافئ بالحبِّ، شربنا النبيذ الفاخر وسط شلّةٍ من الأصدقاء. لكأنَّ عقلي حزر أفكاري فبادرني باقتراحه الأشبه بالأمر: لِمَ لا تتّصلين بأحدٍ من أصدقائك؟

استعرضتُ بخيالي الوجوه التي أشتاقُ إليها. تحمَّستُ للفكرة لحظةً لكن سرعان ما تراجعت. أشعرُ بأنّني في فترة نقاهة. أُريد أن أُشفى من سموم حبٍّ فاشل، واللّقاء مع أصدقاء مشتركين، سيوجع روحي بإيقاظ ذكريات أعمل على التحرُّر من ألمها.

كم يُعطيني تأمُّل الناس هدوءاً وسعادة!؟ ما إن انتهيت من شرب قهوتي حتّى أحسستُ بأنّي معلّقة في راحة تامّة من دون تفكير. لبستُ معطفي وأحكمتُ شالَ الصوفِ حول عنقي،

وجدتني أُحدِّث نفسي بلهجةٍ خطابيّة: برافو عليك، فأنت تحقّقين تقدُّماً مذهلاً في الانتصار على عواطف مريضة تجرُّك إلى الخلف دوماً.

انتفخت روحي بثقة مفاجئة متغطرسة مؤكِّدة لي قوّة شخصيّتي والتزامي بالقرار الصائب بقطع علاقتي معه. كنتُ أُشبه طاووساً مغروراً ينفش ريش غروره متباهياً، لكنَّ إحساسي بالقوّة انطفأ حين فاجأتني المرآة العريضة بهيئتي التائهة، ونظرتي الزائغة!

البردُ قارسٌ في الخارج. وقفتُ على رصيف الحياة محتارةً، عيناي ترشحان بالدمع. أجبر نفسي على الاعتراف بأنَّ دموعي بسبب البرد وليست لسبب آخر!

يا لثقل الشوق، يا لثقل الشوق! جمَّدني الثقل في مكاني. وضعتُ الشال على رأسي أصغي إلى همهمة تنهُّداني. تُرى، ما معنى هذه التنهُّدات المتلاحقة؟!

أمشي في الشارع الذي تواعدنا فيه مرّات ومرّات، شارع ما كنتُ أعرفه من قبل.

سألته: كيف سأراك في أكثر الشوارع ازدحاماً؟

ردّ ضاحكاً: قلبك سيدلُّك؟

قلبي مليءٌ بالعواطفِ الأشبه ببخارٍ محبوس، كيف سأتجاهل قلبي؟ نظرتُ إلى ساعتي، لا لشيء، فقط لأحزر ماذا يفعل في مثل هذا الوقت؟ صار لديَّ هاجسٌ أن أعرف ماذا يفعل في كلِّ ساعة؟

تأفَّفتُ من نفسي. لِمَ لديَّ رغبة بشرح ما بنفسي كلّ لحظة؟!

بالإحساس بكلِّ ذبذبة من مشاعري؟ لِمَ لا أتمتّع بموهبة هذا العصر: تبلُّد المشاعر؟ أليست هذه ميزة زمننا هذا... حيث لا ينجح إلاَّ كلّ من يدوس على قلبه؟ لكن، هل حقّاً أعتبر هذا نجاحاً؟ ألا أحتقر البشر الذين يسخرون من لغة القلب؟ انهمرتْ دموعٌ حارّةٌ من عيني وأنا ألفظ كلمة قلب بشوق ثقيل، كأنَّ بخاراً محبوساً يخرج من فمي... تُرى ألا يستطيع برد الميلاد إطفاء أشواقي!

إلى أين تقودني خطواتي. كم صرتُ قريبةً من بيته، لو عبرتُ هذا الشارع أكون عند عتبته... لكلِّ شخص عتبة، هذا ما أُحسّه تماماً، وأنا متسمّرة في مكاني وشوقٌ أخرسُ يشلّني شللاً.

استولى عليّ شغفٌ مجنون للاتّصال به أو التلصُّص عليه، كم أرغب في رؤيته... أدركتُ أنّني طوال الفترة الماضية لم أنجح في سحق عواطفي إنّما كنتُ أُحاول طوال الوقت التغلُّب على نفسي: أن أخنق عواطفي بقبضة من حديد، لكنّي أُحسّها الآن حيّة وساخنة ومتألِّمة كعصفور معلّق من رقبته بسلسلة حديديّة.

شيءٌ ما انكسر داخلي، شيءٌ أخاف تسميتَه، هزمني. أسرعتُ إلى أقرب هاتف، وضعتُ قطعة النقود وأسرعتُ في طلب رقمه كي أهرب من صوت العقل.

تجمَّعت حواسيّ كلُّها في سمّاعة هاتف باردة. أتاني صوته عميقاً موجِعاً، ومن خلال «آلو» كرَّرها مرّتين حاولت أن أحزر حالته النفسيّة.

ضجَّ كياني بالحزن علينا نحن الاثنين. ورغم أنّني أغلقتُ

السمّاعة من دون أن أتفوّه بكلمة مكتفية بتخزين ذبذبات صوته، فإنّي أحسستُ بأعلى درجات التواصل معه؛ ذلك التواصل الذي لا يوصف بالكلام كما لو أنَّ الهاتف فتح نفقاً بيني وبين قلبه.

تلقّيتُ صفعة من عقلي، صرخ غاضباً: لن أسمح لك بالاستسلام للضعف. هيّا تماسكي. أرتجفُ خوفاً من صوت العقل. أذعنتُ، بدّلتُ ملامح وجهي، تصلّب جسدي ومشيتُ بخطى سريعة إلى السينما، ضمّتني العتمة وشوَّش الضجيج مشاعري، حاولت أن أُعطي نفسي للفيلم المملّ.

أيّ إرادة تسيِّرني. إرادة خارجة عنّي، دفعتني إلى الاتصال بصديقة، ألحّتْ أن أسهر ليلة الميلاد عندها. وافقتُ وكياني يضجّ بالرفض، لكن لا بأس، يجب أن أُساعد نفسي لبداية مرحلة جديدة من دونه. سيكون هو خارج قوسي حياتي وأنا خارج قوسي حياته. بدتْ لي تلك الحقيقة البسيطة العارية مرعبة إلى حدِّ الذعر. تُرى، لِمَ أُحسُّ بالخوف الشديد لمجرَّد الإقرار بهذه الحقيقة؟!

تأنّقتُ وأحكمتُ قناع التفاؤل على وجهي. وقبل أن أقرع الباب وباقة ورد أحمر بلا شذى تتقدَّمني، نظرتُ إلى ساعتي لأتخيَّل أين يكون في هذا الوقت؟ تُرى مع مَنْ يقضي سهرة الميلاد؟

أدهشني أنّني كنتُ نجمة السهرة! من أين تدفّقت حيويّتي؟! كان الضحك يخرج منّي عفويّاً. رقصتُ وتلقّيتُ الإطراء والغزل محاوِلةً أن أُغذّي ثقتي بنفسي. أسعدني أن يتنافس رجلان على خَطْب ودِّي، أعطيتُ لكليهما آمالاً وهميّة، وساعدني الجوُّ الصاخب والموسيقى والرقص على ترسيخ إحساسي بالعبث...

أحسستُ للحظة بأنَّ الألم سخيف ولا يجب محاربته، بل استئصاله من جذوره بلا رحمة، وخنقه بقسوة. عاهدتُ نفسي ألاَّ أسمح لها بالتألُّم بعد الآن. استحضرتُ صور الحبيب، سخرتُ منه ورفعتُ كأس النبيذ عالياً، انتصبتُ مختالة بإحساس جديد طغى عليَّ.

قلتُ بصوتٍ عالٍ: سأشرب نخباً فمَنْ يحزر نخب مَنْ؟!

تعلّقت الأنظار بيدي المرفوعة عالياً تحمل كأس النبيذ وتعالت الأصوات...

ضحكتُ: لم تحزروا، سأشرب نخب الحرّيّة.

كنتُ أشعر بأنّني تمثال الحرّيّة، امرأة من حديد، لن أضعف بعد اليوم تجاه عواطفي... كم كان عقلي فخوراً بي في تلك اللَّحظات. كم كان يُطريني ويصفّق لي بحماسة مُعجباً بنجاحي الكبير في تجاوز الآثار الجانبيّة لحبٍّ فاشل.

وعلى موسيقى حالمة، دعاني رجل تشعُّ عيناه بالرغبة، إلى الرقص. تركته يضمّني إليه متنشّقاً شذى شعري وعنقي، هامساً لي كلمات تثير فيَّ الضجر... كنتُ أتفرَّج على الأجساد المتلاصقة بحجّة الرقص بعينين مستديرتين من الدهشة. بدت لي الحياة مدهشة حقّاً ومسلّية إلى حدٍ عجيب. مرَّ يومي أمامي مدهشاً. عجباً، كيف أعيش متقلّبة بين حالة وحالة، لكن أظنّ أنَّ البشر متشابهون يعيشون متقلّبون بين قرار وقرار، لكنّهم ينجحون بخداع أنفسهم بأنّهم قادرون على خلق النظام من قلب الفوضى. إنّهم يضعون خطّة لحياتهم وينفّذونها. ثمّة انقشاع حدث لي في هذه

السهرة وجسدي مُحتَضَن بجسدٍ غريبٍ لا يحرّك فيّ أيّ شعور. إنَّ القانون الأكبر الذي يحكم الحياة هو العبث، ولولا العبث لما سمحتُ لهذا الغريب بأن يُلصق خدَّه بخدِّي في رقصة زائفة!

انتهت سهرة الميلاد عند الفجر بوعدٍ أن يلتقي الأصدقاء غداً في مزرعة يملكها أحدهم، رحَّبتُ بالفكرة كما لو أنّي أتلقّى مساعدة كبيرة لتجاوز آلام الحبِّ الغارب.

وقبل أن أدخل شقّتي أحسستُ كم أنّ المفاتيح باردة. صدمتني برودة المعدن. ثمّة دويٌّ من أُذنيّ يشبه تصفيقاً بعيداً، ضحك عقلي وهمس لي: إنَّ كلَّ عقلاء العالم يصفِّقون لك لأنّك انتصرت على ضعفك هذا المساء... لم أعد أسمع لأنَّ ألماً فظيعاً مزّق أحشائي. استندتُ إلى الباب ويدي على قلبي والدموع تنسكب حارّة من عينيّ.

تذكَّرتُ يوم أُصبتُ بنزف في معدتي منذ سنوات إثر دواء تناولته على الريق، كم ارتعبتُ وأنا أبصق دماً...

هبَّ العقل لنجدتي ملهوفاً: خير، هل عاودك نزف المعدة؟

ومن خلال دموعي المخضَّبة بالشوق قلتُ له بصوتٍ متهالك: ليست معدتي التي تنزف بل روحي...

تنهَّد مرتاحاً وقال: لا بأس، كلُّ شيء سيكون على ما يرام!

فنجان قهوة حنون

لم تكن نظرته إليها نظرةَ احتقار صافية، بل ممزوجة باستخفاف، وهذا ما ضاعف ألمها.

فكَّرَت، بينما نظرة الضابط تحرق وجهها، في أنّها لم تعد سيِّدة مُحترمة، بل عليها أن تتأقلم بسرعة مع وضعها الجديد كلصّة. سخرت من نفسها: الأُم اللصّة. هل أرادت أن تُحقّر نفسها أكثر ممّا يحصل لها في غرفة الضابط. تسمَّر نظرها على يديها المُتعبتين بعروقهما البارزة، وأظافرهما المُهملة المتقصِّفة. تدافعت لبرهة مئات الصور وانتشرت في حضنها، صورها تغسل وتجلي وتكوي وتمسح الأرض والنوافذ.

انقضَّ صوت الضابط فوق رأسها بصوته المرتشح بالاحتقار:

ـ غريب أمرك، فالسرقة غير مألوفة لدى سيِّدة موظَّفة وظيفةً محترمة.

حلَّ صمتٌ مشحون بالازدراء، وتابع كلامه:

ـ خصوصاً إذا كانت السيِّدة في الخمسين.

لم ترفع نظرها إلى وجهه. هبطت نظرتها من بين يديها

البائستين إلى حذائه الأسود الأنيق، حاولت أن تقدِّر ثمنه، وتذكَّرت أنّها شاهدته في التلفاز في حلقة خاصّة عن الأزياء. عصفَ الحزن بقلبها وهي تتذكَّر نظرات الحرمان في عيون أطفالها وهم يتابعون برامج الموضة والأزياء عارفين أنَّ أُمّهم عاجزة على أن تقدِّم لهم أيّ رفاهية، بل إنّها بالكاد تسدّ جوع معدتهم.

رزمة الدولارات التي سرقتها على طاولة مكتب الضابط. لا مجال لإنكار السرقة فقد ضُبطت بالجرم. لم يخطر ببالها أنَّ هناك كاميرا خفيّة في غرفة المدير المُرتشي الذي يقبض رزمة من الدولارات كلّما خربش توقيعه على أوراق غير نظاميّة.

انقضَّ عليها صوت الضابط مجدَّداً: لا أستطيع أن أصدِّق، أُمٌّ لأربعة مراهقين موظَّفة محترمة، كيف تطوِّحين بكلِّ ذلك وتسرقين. كيف ترضين بأن تمرَغي كرامتك وكرامة أُسرتك في التراب. مَنْ سيتزوَّج بابنتك حين يعرف أنَّ أُمَّها لصّة. مَنْ سيوظِّف ابنك، وأُمُّه لصّة.

كانت تتلقّى كلماته، كما لو أنّها حصى كبيرة تضرب رأسها، ونظرها متعلِّق بحذائه. قرَّرت الصمت، ليس لعدم قدرتها على الحديث، بل لأنّها فعلاً لا تعرف ماذا تقول!

علا صوته: إيه، ما بالك خرساء. قولي شيئاً.

خرج من حنجرتها صوت نحيل أشبه بنحيب: معكَ حقّ، كلُّ ما قلته صحيح.

صرخ: لماذا، إذاً، سرقتِ رزمة الدولارات من جيب معطف المدير.

ارتسمت ابتسامة خائبة على وجهها، بينما دمعتان ثقيلتان سقطتا على قميصها المهترئ لكثرة ما غسلته. كانت حزينة ومُتعبة، إلى درجة ما عاد يهمّها ما يقول، وما سيحدث. فُوجئت برعدة قويّة تهزّ جسدها. فمها يرتجف بقوّة، وأصابعها ترتعش، وفخذاها يختلجان. كأنَّ تيّاراً كهربائيّاً يهزّها. أحسَّ الضابط باضطرابها الذي تعجز عن كبحه، لكأنّها امرأة تعرَّت فجأة من ثيابها أمام حشد من الناس.

أشعل سيجارة، وطلب فنجان قهوة. فكَّرت وهي تحاول السيطرة على اضطرابها، في أنّه لو يملك ذرّة احترام لها لكان طلب لها القهوة. كم تحتاج إلى فنجان قهوة ـ رفاهيّتها الوحيدة في الحياة ـ. أتتجاسر وترجوه أن يطلب لها القهوة. كم يتلبَّسها العار، فهي لا تجرؤ على أن ترفع رأسها وتنظر في وجهه.

انتفضت حين علا رنين الهاتف. صوت الضابط يتراقص فرحاً: سلام حارّ، تأهيل وترحيب. سمحت لها المكالمة الطويلة بأن تغوص داخل نفسها. أحسَّت رغم هول إحساسها بالعار والمصيبة، بما يشبه الراحة؛ راحة مَنْ وصلَ إلى نهاية شيء عذَّبه طويلاً.

لقد عاشت عمرها مطحونةً وسط مشاعر عنيفة متناقضة، بين توجُّس وتردُّد وخوف، ويأس، وأمل، وتعب دائم. ياه، كم أتعبها الأمل. تشعر الآن بأنّها وصلت إلى نقطة اللاّعودة.

تنشّقت بعمق رائحة الدخان الزَّكيّة، وصوتُ الضابط ينتشر في فضاء الغرفة ليخلق دوائر تخنقها. تذكَّرت أصوات أحبَّائها. كادت تغفو وهي تشعر بأنَّ أصواتهم تغطِّيها. رفاهيّتهم الوحيدة

التلفاز الذي يؤكِّد لهم حرمانهم وفقرهم، يتركهم مساءً يغفون ودموع الحرمان في عيونهم، ولُعابهم يتحلَّب على مئات المأكولات اللَّذيذة والسلع الرائعة. أحسَّت لبُرهة برعبٍ قاتلٍ، كأنّها وعت عمق أن تتحوَّل إلى لصّة ويُقبض عليها. ترجَّعَ صوت الضبّاط في ذهنها، من غير المألوف أن تُضبط أُمٌّ وموظَّفة محترمة بجرم السرقة.

معه حقّ، معه حقّ. كزَّت على أسنانها وشبكت يديها بقوّة وهي تصرخ صراخاً أخرس: يا للمصيبة.

لكنّها، على الرغم من غضبها، وعت كيف قامت بالفعل المُشين. أدركت أنَّ ثمّة بذرة شرِّيرة تفتَّحت في أعماقها ولم تستطع مقاومتها. إنّها تعرف أنَّ مديرها لصٌّ، ومرتشٍ، يقبض عمولة عالية على كلِّ توقيع يخربشه، لكنّه لا يُحاسَب ولا يُعتَقَل. سمح بتشييد مئات الأبنية المخالفة للقوانين وقبض ثمن المخالفات. أمّا هي التي عاشت عمرها بصداقة الصبر والحرمان، وتفرَّجت على حرمان أولادها الأيتام، فحين انجرفت إلى غواية الحصول على رزمة من الدولارات التي لمحت المدير يدسّها في جيب معطفه الداخلي... ضُبِطت بالجرم.

لطالما لمحت المدير يدسُّ مغلّفات منتفخة بالمال في جيبه أو درجه الخاصّ. لم تعنِ لها الحركة شيئاً في تلك الأيّام الملعونة، لكن حين طلبه الوزير بالهاتف كي يوافيه على جناح السرعة نسي معطفه. هوى قلبها من الإثارة واعتبرت أنّ ما حصل عبارة عن إشارة من القَدَرِ كي تدفن الفقر لمرّة، وترى البسمة تشعُّ على وجوه أطفالها.

لم يخطر في بالها أنَّ هناك كاميرا خفيّة في مكتب المدير!

أغمضت عينيها وتمنّت لو تفقد الوعي. ياه، كم سيكون ذلك الإغماء رحوماً الآن.

مكّنتها عتمة عينيها من رؤية أعماق نفسها الفسيحة. أدركت، بما يشبه الانقشاع، أنّها ارتكبت تلك السرقة بدلاً عنها: وفاء ابنتها البكر التي أكملت عامها العشرين منذ أيّام، من دون أن تتلقّى أيّ هدية. فتاة ذكيّة جميلة جامحة، متمرِّدة، متعكِّرة بالحنذ لكلِّ من يملك مالاً. وفاء تقف على شفير الهاوية. تنهَّدت وهي تتخيَّل وجه ابنتها الذي ما عاد يعرف الابتسام. زمن ابن كلب حقّاً.

وفاء تشتهي الطعام اللّذيذ والثياب الجميلة. تتمنّى لو تشارك برحلة، لكنَّ الفقر يحاصرها ويشلّها.

لتعترفْ بأنّها في السنوات الأخيرة ما عادت تعرف ابنتها، فالشرف بنظر وفاء مفهوم سخيف لا فائدة منه. ما عادت تتكلَّم بل تصرخ: «أمّي، كلّ كلامك خطأ، فبالمال أستطيع أن أؤكِّد قيمتي، وبدون المال أفقد قيمتي».

معك حقّ يا وفاء... زمن ابن قحبة... لكنّها، ولأنّها أُمّ، كان عليها أن تجعل كفّة الأمل ترجح دوماً. كانت مضطرّة إلى أن تمثّل أنّها مؤمنة بتلك المبادئ الأخلاقيّة.

ما كانت ترتعب من أفكار ابنتها، بل من قدرة تلك الشابّة على البوح بحقيقة أفكارها. قرفت من كلِّ المبادئ عن الخير والشرّ والفضيلة والرذيلة التي تعلَّمتها في صغرها. إنّها ترى العكس في الواقع.

تحوّلت وفاء إلى إنسانة مشتعلة بالغيظ دوماً، لا تتحدّث إلاّ صراخاً وشتائم. تمرّ بها أيّام وهي كئيبة ذاوية كغصن مقطوع. تنظر إلى المستقبل نظرة متشائمة فاترة. ويكفي مجرّد كلمة أو تعليق من أُمّها أو إخوتها، كي تنفجر بصراخ، وتثير شجاراً حول لاشيء!

هوى المظهر يتشبّث بتلابيب قلب الصبيّة. زميلاتها في الجامعة يلبسن ويتأنّقن، أمّا هي فبالكاد تملك أجرة المواصلات، وكلّ ثيابها من محلاّت الألبسة المستعملة.

إنّها لا تقلّ ثقافة ولا ذكاءً ولا جمالاً عن صديقاتها، فلماذا هي فقيرة؟!

«بالمال أؤكّد قيمتي». يا لسلطان الصوت في لحظات معيّنة. تذكّرت الأمُّ أوّل مرّة سمعت وفاء تصرخ بهذه العبارة. لم تغفُ ليلتها وهي تفكّر في تلك العبارة. في تلك الليلة أدركت هزيمتها. وفاء محقّة بكلامها، فهذا الزمن يمجّد اللصوص. إنّهم يصلون إلى أعلى المراتب بقوّة مالهم، ولا يهمّ من أين يأتوز بالمال... ألم تكن شاهدة على سرقات مديرها لأكثر من عشرين عاماً، وكلّ من يعمل بالشركة يعرف تلك الحقيقة، والكلّ ينحني احتراماً للمدير اللصّ!

انتفضت فجأةً عن كرسيّها، وحدّقت في وجه الضابط الذي كان مسترخياً في كرسيّه يتحدّث ويضحك. ارتبك ونظر إليها غاضباً. ودّت لو تصرخ وتعترف له بأنّها عرفت السبب الذي دفعها إلى سرقة رزمة الدولارات من الجيب الداخليّ لمعطف المدير... كانت تجلس في كرسيّ وظيفتها الأبديّ سارحة في اللاّشيء - أو هكذا خُيّل لها - حين انتفضت متذكّرة مشهداً لم تنتبه إليه في

الصباح، فقد رأت صديقة ابنتها الحميمة تجلس إلى جوار رجل عجوز وثريّ يقود سيّارة فخمة... هوى قلبها وهي تحسّ بأنّ وفاء ستضيع مثل صديقتها، وستبيع جسدها مقابل المال!

أجل، أيُّها الضابط، تلك الصورة هي السبب، هي ما دفعني كما لو أنّي منوّمة مغناطيسيّاً، إلى التسلُّل إلى غرفة المدير وسحب رزمة النقود من جيب معطفه.

كانت واثقة من أنّها لو لم تلتق صدفة بصديقة وفاء مع العجوز الثريّ، لما سرقت.

ارتبك الضابط من نظرة اللصّة المتألِّمة. أنهى المكالمة. همَّ أن يصرخ بها لكنَّ شيئاً مؤثراً في نظرتها منعه... أحسَّت كيف تغيَّرت نظرته. خُيِّلَ إليها أنّه يرى فيها أُمّه. قد يكون عاش فقراً وظلماً. تدفّق منها الكلام والدموع معاً، قالت له وهي تجهد أن يكون كلامها مفهوماً:

- أتعرف، كنتُ أُقاتل من أجل أولادي، عارفةً إنّي سأُهزَم، لكن هذا لم يُضعف عزيمتي. لكنّ الواقع كان يسخر منّي كلَّ يوم، إلى درجة صرتُ موضع سُخرية بالنسبة إليهم، وصارت كلّ أفكاري ومبادئي وأخلاقي التي أُحاول إقناعهم بها «دَقّة قديمة». تعبير لطيف ومخفّف لكذبي.

ابنتي تقول: لا أستطيع أن أُؤكّد قيمتي من دون المال. وأنا أستميت لأُثبت لها العكس، لكنّي أعرف في أعماقي أنها مُحقّة. أنت تعرف أنَّ مديري لصّ، كلّنا نعرف...

اختنقت بدموعها، وتبدَّد كلامها رذاذاً من لعاب مسحته

بظاهر يدها المعروقة. لم تعد قادرة على الكلام. تهاوت على المقعد وهي تبكي خيبات عمر كامل. أحسَّت بأنّها راهنت على عمرها وخسرت الرهان.

استأنفت كلامها بمشقّة: لا بأس، لقد خسرتُ المعركة. مَنْ أنا حتّى أصمد في وجه تيّار متدفّق من الفساد. لكن صدِّقني، قتالي كان شريفاً، لأنّني لم أنتظر مكافأة من أحد، فقط أردتُ ألاَّ يسقط أحبّائي في الهاوية... كنتُ أستميت لأحميهم من الانحراف إلى درجة... أفٍّ، كيف سأقول لك، إلى درجة أني سرقت نيابة عنهم.

غامت الغرفة، وحلَّ ظلام تخرقه نقاط ضوء مباغتة. أحسَّت بأنّها تدور وتدور، كم تمنَّت الموت صادقة في تلك اللحظة.

لم تعرف إن كانت قد غابت عن الوعي لحظات.

لكنّها تنبّهت إلى صوتٍ رقيقٍ ويدٍ حنونة تربت على كتفها، وحين فتحت عينيها الزائغتين، وجدت الضابط متأثّراً، ويمدُّ لها بيدٍ مرتعشة فنجان قهوة!

الخطّة الخمسيّة

انفصلت في العشرين عن خطيبها الذي يزيدها بخمسة أعوام، لأنّه استسلم لنوبة شهوة عارمة، ولم يستطع لجمها. كان شابّاً شهوانيّاً، يحب الطعام، واللباس، والحفلات، والسفر، ويُحبّها. لا يمكنها نسيان تلك الليلة التي تركت وشماً بمساحة ذاكرتها. كانا عائدين من حفلة عرس إحدى قريباتها، حين أوقف السيّارة في شارع معتم تحيطه البساتين. اعتقدت أنّ ثمّة عطلاً أصاب السيّارة، لكنّها حين لمحت لمعان الشهوة في عينيه، هوى قلبها. عيناه أشبه بعينَي ذئب جائع. أخذ قلبها يخفق بقوّة، ورغم أنّها تحبّه وتشتهيه، فإنّها في تلك اللحظات تقمّصت شخصيّة الشرطيّة. عليها أن تقمع شهوتها وأن تقاومه. واجبها تجاه نفسها، أن تصون عذريّتها ـ عنوان شرفها ـ كما علّموها.

صدّته بلطف في البداية. لعلّه اعتقد أنّها تتمنّع وسينجح في كسر مقاومتها، فتمادى في مداعباته اللّحوحة، فصرخت، وهدّدت بأن تصرخ بكلّ طاقتها... لم تعد تتعرّفه حين سيطرت عليه شهوته كلّيّاً، ورأت عضوه مصوّباً تجاهها كخنجر... كان يهمس لها بأنّه يعبدها، وسيتزوّجان بعد عشرين يوماً، وبأنّ معظم

المخطوبين يمارسان الحبّ أثناء الخطوبة و. . . لكنّها لم تكن تصغي، بل تشعر بأنّها بين يدي رجل يريد التهامها. نسيت أنّه خطيبها الذي تحبّه، والذي تتأبّط ذراعه سعيدة ومتباهية وهما يتمشّيان. نسيت أنّهما انتهيا منذ أيّام من شراء أثاث عشّهما الزوجي. استماتت في الدفاع عن عذريّتها. أرعبه صراخها الهستيري الذي ترجَّعَ صداه في البساتين فبدا صراخ قبيلة من النساء. . . واضطر أخيراً إلى التراجع عن غزوه العنيف حين انغرست أسنانها في كتفه تاركة ندبة سترافقه مدى الحياة.

لم تغفُ تلك الليلة. بقيت بكامل ملابسها تنتظر طلوع الصبح لترسل له خاتم الخطوبة والهدايا. صعقه موقفها، لكنّها كانت منتشية بسلوكها، مؤمنة بكلّ ذرّة في كيانها بأنّ الشاب الذي لا يستطيع الحفاظ على عذريّة خطيبته، لا يستحقّ الاحترام، ولا يستأهل الثقة. . . ولم تفلح توسّلاته ووساطة المقرّبين. يا لسعادتها وهي تشعر بالانتصار. . . الانتصار للمبادئ التي اعتقدت أنّها تؤمن بها في العمق، والصادرة عن عمق كيانها. . .

أشعلت سيجارة، ونفثت الدخان بتلذّذ. إنّها الآن امرأة في منتصف العمر، صقلتها التجارب. ابتسمت لإدراكها كيف تكتسي الذكريات معاني جديدة. . . ترتسم ذكرياتها ضبابيّةً في سحب الدخان، تُثير فيها انطباعات لا علاقة لها بالأحاسيس والمشاعر في ذلك الزمن البعيد الذي حدثت فيه!

في الخامسة والعشرين أحبّت شابّاً سحرها بخبراته للحياة، فقد درس الطبّ في ألمانيا، وتخصّص في أميركا، وعمل لسنوات في لندن. . . أحبّته بِوَلَهٍ. حكت له عن خطيبها السابق، سألها

وابتسامة خبيثة تلوح على شفتيه: ألم تحبّي أحداً بعد خطيبك. . . نظرت إليه بعتاب: لم أحبّ غيرك، أنت خطيبي الذي أعبده.

في الخامسة والعشرين أحسّت بأنّ جسدها أشبه بثمرة ناضجة تكاد تتشقّق عن نسغ الشهوة، ولم تمانع حين قادها خطيبها إلى شاليه يملكها صديق له، وبعد مداعبات خفيفة، سلّمته عذريّتها، وهي تؤكّد لنفسها أنّ معظم المخطوبين يمارسان الحبّ قبل الزواج! وأنّهما لا يرتكبان إثماً وجريمة، بل الجريمة الوحيدة هي وأْد المشاعر الصادقة العنيفة ومنعها من التعبير عن ذاتها.

تزوّجت وهي في السادسة والعشرين، وافتتنت بلغة الجسد التي لا تفوقها لغة. كان جسدها متناغماً إلى أقصى حدّ مع جسد زوجها. وأحسّت بالشفقة والأسى على خطيبها الأوّل، يا للقسوة التي تعاملت بها معه. . . كم تتمنّى لو تعتذر إليه، لكن بينهما هوّة زمنيّة ونفسيّة لا يمكن تجاوزها. . .

في الثلاثين تلقّت خنجر الخيانة في قلبها بصمتٍ، وشجاعة زائفة. لم تصدّق أنّ زوجها يخونها مع امرأة مطلّقة، تكبرها بسنوات، ولا تملك ذرّة جمال! لكنّ الواقع أثبت لها تلك الحقيقة المروّعة. أحسَّت بأنّها عاجزة عن استيعاب تلك الخيانة، فكيف يضاجع أخرى وهو يأتيها بكلّ تلك اللهفة والشهوة؟! ما الذي ينقصه حتى يرتمي بأحضان أخرى؟! حاول أن يفسّر لها أنّ تركيبة النفس البشريّة ملولة، وأنّه بعد سنوات من الزواج يتآلف الجسدان إلى درجة تختفي حالة الشغف. . . وأنّ جوهر علاقته بتلك المرأة قائم على التعاطف والصداقة العميقة، فهي مطلّقة وطليقها خطف ابنها. . . وأنّ التعاطف يفوق الحبّ قوّة. . . مجروحة ومهانة

ومنكسرة، لكنّها تغلّف كلّ ذلك بكبرياء جليديّة وتصمّم على الطلاق محتفظة بحقّ حضانة ولديها.

بذلت كلّ ما في وسعها بعد الطلاق، كي تخفّف شعورها بالمهانة. كم من الليالي قضتها مسهدة وهي تحسّ بأنّها كائن يذوي، وتذوي في أعماقها كل رغبة. جسدها يشتاق إلى طليقها، وكرامتها ترفض هذا الشوق. لم تستطع أن تسامحه حتى حين جثا على ركبتيه طالباً السماح... بدت لها الحياة ملفوفة بذلك العقم العبثيّ. مرّت سنوات وهي تحاول سبر جوهر الأشياء ودوافع السلوك البشري. كم مرّت أشهر كئيبة وهي تشعر بأنّ حزنها يتقطّر في قلبها قطرة قطرة. كم كانت تتعذّب وهي تتخيّل وصالها مع طليقها... ياه، ما أبشع الخيانة.

لم تقدّر مخاطر الحنين، ولم تدرك أهمّيّة ذلك النَّمَل الخفيف الذي يسري في جلدها كأنّه همس رقيق بأنّها تتوق إلى رجل دافئ ومُحبّ... وفي السادسة والثلاثين بلغت أوج اشتياقها إلى الرّجل، وأحسّت بأنّها تشيخ حقّاً، وتكاد تجنّ إن لم تُقحِم نفسها في علاقة عاطفيّة جنسيّة.

هل أحبّته حقّاً؟ أم أرادت أن تحبّه كي نقِيَ روحَها من تشقّقات الحرمان. أحسّت كيف غدا قلبها رقيقاً وحسّاساً لكلّ شعور داخلي. كان عشيقاً مثاليّاً، رقيقاً وحنوناً ومتفانياً في إسعادها، يهتمّ بأدقّ تفاصيل حياتها، لكنّه كان متزوّجاً. حاولت تجاهل تلك الحقيقة، ولم تستطع مواجهة نفسها بذلك المنطق القديم، حين طلّقت زوجها لأنّه خانها. أترضى بأن تسبّب لامرأة مثلها طعنة الخيانة القاتلة؟! أتحترم رجلاً يخون زوجته سرّاً؟! لكنّ

الحقيقة تهزمها، فهي بحاجة إلى هذه العلاقة. إنّه يعطيها سعادة وأملاً، وتشعر بأنّ شعلة الحياة لن تذوي في قلبها، لكن نوباً من احتقار الذات وصحوة الضمير كانت تعذّبها لأيّام، إلى أن انتهى الصراع بأنّها لن تسمح لنفسها بالاستمرار في علاقة مع متزوّج.

حاولت طوال حياتها أن ترسم طريقةً للعيش بكرامة، للعيش السليم كما تسمّيه، لكنّها عجزت. تُرى، ما تعريف القيم والأخلاق والمثل؟! هل تتغيّر تلك المفاهيم مع العمر ومع الجغرافيا؟! لماذا يبحث الإنسان عن ثبات واستقرار في حياته؟! هل السعادة حقّاً في الاستقرار؟ وهل يعني الاستقرار الإخلاص؟ يا لخيبة العقل، كلّما أمعنت التفكير في تلك المفاهيم محاوِلَةً وَضْعَ تعاريف ثابتة ودقيقة لها، فشلت. ما الأفكار سوى قطرة زئبق، كلّما حاولت الإمساك بها تفتّتت إلى مئات النقاط الصغيرة.

عند أعتاب الأربعين أحسّت بأنّها امتلكت سرّ المعرفة، ولم تعد تتخبّط في فهم أعماقها. تصالحت مع العواصف والجروح والصدمات التي مرّت بها... الحقيقة النزيهة وحدها حرّرتها من عذاب القلق، ولم تعد هناك معاني مُستغلقة على فهمها، لكن لا يُمكنها تجاهل طعم مرارة في فمها. هل هو طعم الحقيقة؟! أم هي مرارة تجاوز سنّ الأربعين والإحساس الأليم بأنّ الشباب يودّع؟ الأربعين أشبه بستارة تطلّ على هوّة معتمة... كانت تقضي ليالي طويلة في منزلها الأنيق، يحيط بها فراغ كبير، واعيةً قسوةَ ولاإنسانيّةَ خلوّ حياتها من رجل... وأحياناً تُجيز لنفسها قدراً من الغضب المكبوح... لِمَ لا تبحث عن رجلٍ مناسب... **انفجرت** ضاحكةً من تعبير «رجل مناسب». بدت لها تلك العبارة مستحيلة

وغامضة وسخيفة على نحوٍ عجيب. . . تنبّهت كم يستعمل البشر كلمة مناسب: اللّباس المناسب، الأكل المناسب، السلوك المناسب، الرجل المناسب. . . أيّ سخف هذا، تُرى مَنْ يُحدّد المُناسب: العقل أم القلب؟

سؤال مقلق يباغتها في لحظات غير متوقَّعة، كأنّه يتسلّل من تلك التجاعيد الخفيفة في وجهها: ما الذي يمكن أن يطرأ على حياتي وأنا في الخامسة والأربعين؟

اعترفت بشجاعة بأن لا شيء يدمّر النفس مثل الرتابة. كم تتبدّى لها حياتها عقيمة. ثمّة شغف غامض في أعماقها لا يمكنها تجاهله، شغف للحياة وللرجل وللحبّ وللفرح. . .

التقته، في الواقع اصطادته. كان يصغرها بسنوات، أحبّت نضارته وفتوّته. أسعدها انجذابه القويّ نحوها. . . هذا ما ترغب فيه تماماً: رجل يفتّح شهيّتها للحياة. تريده هامشاً من الفرح والشباب والحيويّة، وهي ستقدّم له نبيذها المُعتّق. . . أكثر ما أحبّت فيه كونه متزوّجاً. ياه، إنّها حقّاً تقدّر تلك النعمة، فلينشغل بحياته التي لا تعنيها، فهي تريد حيّزاً، مجرّد مقعد منزوٍ في حديقة الحياة الصاخبة.

حكمة منتصف العمر تظهر حقيقة سافرة: سخف الامتلاك واستحالته، استحالة خلود مشاعر نعتقدها خالدة لقصور في عقولنا. . .

عقب السيجارة يحرق إصبعها، رمته جانباً. ابتسمت، لم يعد في فضاء غرفتها دخان الوهم الجميل.

آمنـــتْ

لم يفهم أحدٌ سرّ التحوُّل المُفاجئ لسامية إلى الإيمان. فجأة ما عادت تفوِّت قدَّاساً إلهيّاً، وتكون أُولى الداخلين إلى الكنيسة وآخر الخارجين منها. ألزمتْ نفسها بكلِّ الطقوس الدينيّة من صوم واهتمام بالتعليم الدينيّ للمراهقين والشباب، وحضور الاجتماعات الدينيّة وتنظيم النشاطات التابعة لها. حتّى أقرب المُقرَّبين منها ـ زوجها وأولادها ـ لم يفهموا سرَّ تديُّنها المباغت، كأنَّ معجزة هبطت عليها من السماء.

كان زوجها أكثر الجميع دهشة. فهو الذي عاش معها ربع قرن، وكان يشاجرها دوماً لإهمالها الطقوس الدينيّة ويرجوها أن تمارس تلك الطقوس ـ حتّى لو لم تكن مقتنعة بها ـ من أجل أَمن المظاهر الاجتماعيّة، لكنّها كانت ترفض. ولم تجامله مرّة واحدة، بل ظلَّ موضوع الإيمان وطقوسه محور خلاف جوهريّ بينهما. فهي تفهم اللّهَ أنّه الخير والحرِّيّة المطلقة، أمّا تلك الممارسات فليست سوى تظاهرٍ ورياءٍ.

وحين تُسأل بإلحاحٍ عن سرّ تحوُّلها المُفاجئ إلى الإيمان، تبتسم، ولا تتفوّه بكلمةٍ. زوجها متلهِّف لمعرفة السرّ، وعلى

الرغم من إلحاحه وتوسُّله وغضبه، فإنّها احتفظت، دوماً بالجواب نفسه: ابتسامة متعالية.

لا يمكنها أن تبوح لأحد بأنّها اهتدت إلى حبِّ اللّهِ عن طريق هوى رجل، رجل عبدته لسنوات طويلة وهو بعيد، عارفة سلفاً أنَّ مصير هذا الهوى أن يظلَّ حبيس قلبها.

كانت في الرابعة والعشرين، حاملاً في شهرها التاسع، حين التقته. قدّمه لها زوجها على أنّه صديق طفولته، لكنّه من أوَّل شبابه سافر إلى أميركا، درس هناك، وفضَّل البقاء والعمل في بلاد الغربة التي تقدِّر شهاداته العلميّة أكثر من بلده. ومن اللّحظات الأُولى التي التقت عيناها بعينيه، اهتزَّ كيانها كلّه كما لو أنَّ زلزالاً مفاجئاً أصابها، وإذا بكلِّ عواطفها الدافئة تجاه زوجها تتبدَّد في طرفة عين!

خجلتْ من نفسها وتحسَّستْ بطنها المُنتفخ بالحمل بيديها، كمن تريد أن تردَّ نفسها إلى الصواب. ما بكِ يا امرأة ترتعشين كقشّة في مهبِّ عاصفة كلّما نظرتِ إلى هذا الغريب؟! لكن حدسها الأنثويّ نبَّهها إلى أنَّ اضطراباً مماثلاً أصاب الصديق الغريب، فهو لا يستطيع أن يحوّل نظره عن وجهها برغم الوجوه الكثيرة حوله.

تُرى، ما تفسير تلك الأمور المُربكة واللاّمنطقيّة في الحياة!

أحسَّتْ بغيظ لأنّها حامل في شهرها التاسع. ياه، ليته رآها قبل زواجها، كم كانت رشيقة. ليتها التقته قبل زواجها. لكن، أيّ بلبلة ذهنيّة أصابتها؟ أما كانت تعتقد أنّها تحبُّ زوجها قبل أن تزلزلها نظرات الصديق الطارىء؟ كيف اكتشفت أنَّ مشاعرها لزوجها كانت زائفة وغير حقيقية؟!

لم تنسَ تلك السهرةَ التي امتدَّت حتى الفجر. الصديق محور السهرة، ومحطّ أنظار أصدقائه الذين لم يلتقهم منذ سنوات. كان يحدّثهم عن حياته في أميركا، عن البدايات الصعبة، وعن كفاحه. تزوَّج بأميركيّة وطلّقها بعد خمس سنوات. لديه طفلة تعيش مع أُمّها لكنّه يلتقيها دوماً. اختار الحرّيّة، ولم يفكّر في الارتباط ثانيةً وعمل لسنتين أُستاذاً زائراً في باريس ثمّ أُستاذاً زائراً في طوكيو. يعشق السفر ويمقت الروتين...

كان يتوقّف عن الكلام من وقت إلى آخر متفرّساً في وجهها، ويسألها بصوتٍ يشفّ عن حنان عميق: هل أنتِ على ما يُرام؟

كم تأثّرت برقّته. إنّه يخشى عليها التعب وهي حامل على وشك الولادة. تُرى، هل يخصّها باهتمامه لأنّها حرّكت مشاعر عميقة لديه، أم هُيِّئ لها ذلك وهو بريء من تخيُّلاتها.

لكنّها منذ تلك السهرة، لم تنفكَّ عن التفكير فيه طوال الوقت. سافر الصديق الغريب بعد أن خطف قلب امرأة اعتقدت أنّه ممتلئ بالحبِّ لزوجها؟ خطف قلبها ببساطة وتركها امرأةً تعيش على حافة الهيام.

وجدت نفسها منذ سفره تفكّر في حياتها. فهي ابنة أُسرة متوسّطة تقليديّة، رُبّيت على قيم مُعيّنة أساسها الحلال والحرام؛ الفضيلة والرذيلة؛ الخير والشرّ؛ السمعة والعفّة والشرف. تلك هي كلمات قاموس حياتها... إنّها لا تفهم شيئاً إلاّ باستحضار نقيضه، هكذا حياتها مجرَّد قوسين خانقتين وهي تعيش بينهما. تقدَّم لها شاب قريب لأُمّها ومن أُسرة تشبه أُسرتها، اعتقدت أنّ قلبها خفق له فهو متعلّم ووسيم. تزوَّجا، وكانت تُمضي أيّام العُطَل في بيت

أهله أو أهلها، متعتهم الأساسيّة الكلام وتناقل الأخبار؛ كلام لا ينقطع يهدر ويهدر كشلاّل أبديّ.

كان يمكن لعمرها أن يمرَّ وهي تحسُّ بالرضا لولا ذلك الضيف الذي زلزل كيانها.

حاولت إعادة نفسها إلى التوازن القديم وإقناع عقلها بأنَّ هذا الهوى المزلزل سوف يمرُّ بسلام كما لو أنّه مرض عابر، لكنّها يوماً بعد يوم صارت تتعلَّق بالغريب كإلهٍ تعبده بكلِّ جموح روحها. وصارت وهي تفكِّر فيه ليل نهار، تشعر بأنّها تخونه مع زوجها، بل صارت تبالغ في الاهتمام بزوجها كي تسكِّن أوجاع ضميرها.

ولم تبدِّل الأمومة من هواها للرجل البعيد، بل ظلَّ حبُّ الرجل يخفق في قلبها، تشعر بأنّها تعيش حياتين أو مستويين، حياة القلب بجموحه ولامنطقيّته، وحياة العقل بثقل الواقع المفروض عليها. لم تسمح لنفسها في البداية بأن تحلم بالرجل كما تشتهي، لكنّها في ما بعد أذعنتْ لطغيان الهوى، فصارت تتخيَّل لقاءات دافئة معه، ومداعبات ولمسات تجعل جسدها وروحها يتوهَّجان كجمرة. إنّها تعي حالتها تماماً، فهي امرأة تعيش بطاقة أحلامها، ولأحلامها مذاق اليقظة. ياه، إنّها تكاد تحسُّ برطوبة شفتيه ومتانة عضلاته والدغدغة التي يثيرها في جسدها ملمسُ أشعار ساعديه.

لم يلحظ أحد التبدُّل الروحيّ الذي حصل لسامية. حتّى زوجها لم ينتبه إلى التبدُّل التامّ في تعابير وجهها، فلم تعد ملامحها مرتشحة بالرضا، وحين كانت أعصابها تثور فجأةً ومن دون سبب واضح والكلّ يعتقد بأنّ التعب هو السبب الوحيد. وحدها تعرف أنَّ الشوق إلى الغريب سبب عصبيّتها.

مرّت خمس سنوات لم تلتق فيها الرجل الغريب. لم تحاول مرّة السؤال عنه أو تسقُّط أخباره، فهو موجود في قلب حياتها، تشعر بثقل وجوده الذي يحتجزها. أدركت أنَّ هذا الرجل حرّضها على التفكير في حياتها. ما أتعس الحياة في هذه المدينة الفقيرة بالروح والفنّ، حيث الناس أسرى محدوديّتهم، يثرثرون، وليس لديهم وسيلة للتسلية سوى الكلام، ويناقشون الأمور نفسها بالعقليّة القديمة المتوارثة نفسها، لا أحد يجرؤ على الشكّ، بل حتّى على السؤال؟!

إنّها تعرف أنّها عاجزة عن تغيير حياتها، فهي تعبد طفليها وتقدِّر مزايا زوجها الذي يقدِّس أُسرته، وتجد كلّ من حولها ودوداً وطيِّب القلب، لكن طيبتهم تخنقها وتجعل أحلامها كوابيس، فهي دائمة الشجار مع هؤلاء الطيِّبين في أحلامها!

طعم الحياة رديء هنا. هذا ما تحسّ به، ولم يستطع أحد في هذه المدينة اقتحام باب روحها. إنَّ الحياة هنا أشبه بتثاؤب طويل طويل لا نهاية له؛ أشبه بنعاس لا صحوة بعده. أمّا الرجل الذي أقحمه القدر في حياتها فقد فتح باباً موارباً لها أمكنها أن تطلَّ منه لترى عالماً آخر أكثر غنىً وتنوُّعاً، عالماً كلّه إثارة وتجدُّد ومعنى. إنّها تشعر بالشفقة على نفسها وعلى الناس هنا الذين يشبهونها. ما كان يمزّق قلبها اكتشافُها إنسانةً أُخرى في أعماقها؛ إنسانة مختلفة عنها كلِّيّاً، ما كان لها أن تدرك وجودها لولا الرجل الذي أضاء حياتها كبرق، وشقّ ظلام أيّامها... ثمّة إنسانة تقبع في زاوية ما من روحها، تحتقر نمط حياتها وتدعوها إلى حياة أكثر بهجةً وغنىً.

التقته مرّة ثانية بعد ست سنوات. تضاربت مشاعرها حين سمعت أنَّ الرجل الذي يسكنها غيابُه، في وطنه وسيزورهم. هل هي سعيدة! أم تفضّل ألاّ تواجهه لتجنِّب نفسها عناء هوى عنيف لا يمكنها تذوُّق ثماره المحرَّمة. لكنّها رغبتْ في أن تُخضع نفسها لاختبار لقائه متمنّية أن تكتشف أنَّ كلَّ ما أحسّت، به كان وهماً. لكن ما إن التقته حتّى أصابها دوار من الوجد. قبَّلها من وجنتيها فظلّت لأيّام تشعر بأنفاسه العطرة تلفح وجهها.

إنّها تعبده وتخجل من أن يلحظ أحد ذلك اللهب الأسود اللمّاع المُتأجِّج في عينيها كلّما نظرت إليه. أدهشها أنّها لم تشعر بكنوز أُنوثتها مع زوجها، أمّا مع الغريب، فقد صارت ـ وبطاقة خيالها وذلك الهوى الجامح المقموع في قلبها ـ تكتشف المفاتن الغامضة في جسدها. فلأوّل مرّة، تهتمُّ بإبراز استدارة كتفيها وانسياب فخذيها الرشيقين. اشترت ثياباً أنيقة كما لو أنّها تزفُّ نفسها إليه. لم يَدُرْ بينها وبينه أيُّ حديث خاصّ. لم تنفرد به، لكن كلّ حديثهما أحسَّت به مُلغزاً.

حين تسأله: ألم تشتق إلى الوطن؟!

قال: الوطن في قلبي.

وحين سألها: هل أنت سعيدة في حياتك.

أجابته: لا يمكن أن تكون سعيداً هنا، من دون قوّة قلبك وخيالك.

في حديثهما تواطؤ خفيّ. يُدخلها في حالة نشوة دائمة. لم تدم زيارته إلى الوطن سوى عشرة أيّام. ودَّعته بفتور وسط شلّة من

الأصدقاء غير عارفة متى ستراه ثانية. يبدو أنّه لمح غمامة الحزن تعبر صفحة وجهها النقيّ، وكيف أخذت نَفَساً عميقاً، كما لو أنّها تختنق من نقص الهواء. ومن دون أن ينتبه أحد ضغط على يدها الفارغة من السعادة، وهمس لها: تستحقّين حياة أفضل.

تركت عبارتُه دويّاً هائلاً في روحها، وخلّف سفرُه موتاً حولها. شعرت بأنَّ دنياها مصنوعة من تراب، وبأنّها امرأة من تراب أو أنّها سراب لامرأة لا تستطيع أن تكونها.

الأيّام العشرة التي قضاها في وطنه، جعلت لحياتها نكهة، أحسَّت كم أنَّ الحياة مدهشة وعذبة. لحديث هذا الرجل طعم رائع. حين تنصت إليه تحسُّ بأنّها تتذوّق حلوى لذيذة، حياته غنيّة مُتجدِّدة يُغنيها السفر والتجارب، أمّا حياة الناس هنا فمملّة، تخنقها بالضجر. لعب الورق تسليتهم الوحيدة.

صارت حياتها، مشدودة في انتظار سنوات عمرها، تتلاحق، وهي أسيرة هوى لا يفتر يسخر من المنطق والعقل؛ هذا الهوى موجود؛ هذه الحقيقة لا يمكن نكرانها. كان عليها أن تعمل على نسيان نفسها بأن تُغرِق ذاتها أكثر فأكثر في شؤون أولادها وزوجها، وفي لحظات كثيرة كانت تنتقص من قلب مشاغلها متسائلة: ما الذي أفعله بنفسي؟! ذات يوم كانت تكوي قمصان زوجها سعيدة بالهدايا التي قدَّموها لها في عيد الأُمّ، وجدت نفسها تتصلَّب فجأة بحقد فظيع وتترك المكواة على كمِّ القميص لتحرقه عن عمد، ثمّ ترميه في القمامة. تلبس ثيابها وتخرج من البيت كما لو أنّها تفرُّ منه. تسير بسرعة مدهشة كأنّها تلحق سراباً، راغبة بالفرار من جلدها. أضناها المشي لساعتين فعادت لاهثة إلى سجن أُسرتها من

دون أن يلحظ أحد تَمرّد أُمّ. تُرى، ما الفرق بين الأُمّ والرِّق. . . لهما الوزن نفسه وربّما المعنى نفسه.

فكّرت كم أنَّ الزواج مخادع، فهي تهب لزوجها جسدها الميت، لكنّه يعتقد أنّها تحبُّه. . . ومع الوقت صارت تمقت هذا الواجب الثقيل وتختلق الأعذار للتهرُّب فيثور مطالباً بحقّه. فكَّرت في أنَّ الزواج يعني ألاَّ تكون المرأة سيِّدة على جسدها، بل هناك من له الحقّ في هذا الجسد. لم تجد مفرّاً من مصارحة زوجها بأنّها ماتت جنسيّاً: تعبير ابتدعته وأعجبها. نظر إليها نظرة تنضح بغضب مكبوت وقال معتقداً أنّه سيميتها بكلامه: لا تلوميني إذا خنتك. . .

انفجرت ضاحكة، من المفارقة في موقفيهما، فاشتعل غضبه أكثر، لكنّها تمنّت بسرِّها لو يُوفَّق بعشيقة تقبل أن تعطي ذاتها لرجل محدود يجد متعته العظمى في لعب الورق وتدخين الأركيلة مع الشلّة نفسها من الأصدقاء.

كم رغبت في أن تشكِّك في حبِّها للغريب، للرجل الحلم. لعلّها تحبّ نمط الحياة التي يعيشها والمحرومة منها في مدينة بائسة. لعلّه يمثّل لها غواية الخطيئة التي لم تسقط فيها أبداً.

مسكين من لا يخطىء، فهو لن يتذوّق النعمة في ما بعد السقوط. كانت طوال حياتها الابنة البارّة لمجتمع يقدِّس مفاهيم جامدة؛ كانت كما يشتهون وتعتقد أنّها تشتهي ما يشتهون!

كم فكَّرت في الجملة الوحيدة التي خصّها بها: تستحقّين حياة أفضل. ياه، لو تزوَّجت به كم كانت ستعيش حياة مختلفة.

كانت سترافقه في أسفاره وتتعلَّم عدَّة لغات وتلتقي بشخصيّات غنيّة مثقّفة. لحديثه بريق يضيء العقل والقلب أيضاً، كان بإمكانها لو تزوَّجت به أن تدرس تاريخ الفنّ؛ ذلك الحلم الذي أُجهض لأنّ الظروف لا تسمح، فقد تخرَّجت من الجامعة مع قطيع من الجامعيّين نصف الأُميِّين الباحثين أبداً عن وظيفة لن يعثروا عليها إلاّ بالرشوة.

تُرى، مَنْ يخلق مَنْ؟ هل الهوى يخلق الحلم؟ أم الحلم يخلق الهوى؟! تتساءل ولا يهمّها الجواب.

يظلُّ وجهها يرسم الابتسامة المتوتّرة نفسها وهي تحلم بالرجل الذي وشم ذاكرة قلبها إلى الأبد.

تُرى، كم من النساء المتزوِّجات يعشقن رجالاً متخيَّلين؟! كم تتمنّى لو تملك الجرأة وتخوض في تلك المواضيع الحسّاسة مع صديقاتها، لكن حتّى صداقاتها مختنقة بالاعتبارات الاجتماعيّة.

صار كتابها المفضَّل رسائل جبران خليل جبران ومي زيادة. مذهل حبُّ مي وجبران الذي تأجَّج على الرغم من المسافات، وعلى الرغم من أنّهما لم يلتقيا أبداً.

أفاقت ذاتَ ليل مجفلة من تأثير حلم لا تتذكّره بوضوح، لكنّها تعيش انفعالاته. جلست في سريرها لاهثة وعيناها تسطعان بنور غريب تحسّ به من دون أن تراه. حدّقت في الظلام كما لو أنّها تسبر أغوار فكرة تتراءى لها من وراء ستارة. ستزيح الستارة لتلتقط حقيقة نابعة من كيانها كلّه. لقد أحبَّتْ رجلاً، حبّاً قويّاً، ملك عليها قلبها وكيانها؛ حبّاً عاش سنوات طويلة وبزخم لا يفتر

ولا يعرف الهزيمة؛ حبّاً بدّلها شيئاً فشيئاً وجعلها تكتشف حقيقة ذاتها وتقيِّم من حولها بعد أن سقطت الغشاوة عن عقلها؛ حبّاً حرَّرها من محدوديّة كانت تحكمها؛ حبّاً أنقذها من التفاهة حولها وأعطاها وقاية من إدمان الروتين القاتل للأحاسيس.

قفزت من سريرها وهي تشبك يديها بقوّة ببعضهما وتُنصت إلى وجيب الدم يتدفّق في شرايينها. انسكبت دموعها حارقة وهي تحسُّ بفيض من نعمة هبطت عليها من السماء وغمرتها كماء دافىء. وكنهر يحوّل مجراه، انجرف هواها من الرجل إلى اللّه.

فصرخت بكلِّ جماح روحها: آمنت!

حياة في عنق الزجاجة

تُرى، ماذا يستطيع الإنسان أن يعرف عن الناس الذين يعيش معهم يومياً؟

فكرة ألحّت عليها هذا المساءَ وهي تجلس في مقعدها الخاصّ بها في الصالون، هذا المقعد الذي طالما أثار دهشة الزوّار، حتّى أنَّ أحدهم سمّاه المقعد الحردان، وآخر شبَّهه بطفلٍ غاضب حرون انتحى زاوية بعيداً عن أهله، لكنّها وحدها تضحك ساخرةً عارفةً أنّهم لن يدركوا إعجابها بالمقعد وإصرارها عليه، إذ إنّه يُعفيها من رؤية وجوههم.

كم من الأحاسيس تعصف بروحها وهي تحدّق في رؤوسهم: أُمّها، أبيها، خالتها، وأخيها وزوجته. نظرات فاترة جامدة، النظرات نفسها التي تستقبل بها أيّامها، فتشعر كم هو مريحٌ للأعصاب، النظر إلى الرؤوس من الخلف، من دون رؤية الوجوه. ياه، ليس هناك ما هو أكثر مشقّة من مطالعة الوجوه، الوجه عبء؛ هذا ما تعتقده.

كان يمكن هذا المساءَ أن يكون كغيره من المساءات لولا

ذلك التساؤل المقلق والخبيث الذي انفلت من أعماقها: ماذا يستطيع الإنسان أن يعرف عن الناس الذين يعيش معهم يوميّاً؟ سؤال مبطّن برعب خفيّ وقلق. نقّلَتْ نظرها بين رؤوسهم. اجتاحتها مشاعر نقمة غير مفهومة. هل تحسّ بالنقمة عليهم! لا يمكنها أن تجيب بدقّة، لكنّها منذ سنوات طويلة وهي تفكّر طوال الوقت بصفاتهم السيّئة، وتشعر يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، بأنّ كيلها قد طفح منهم، وبأنّها بالكاد تسيطر على صوتها، تلجم تحدِّيه وسخطه وهي تتحدَّث معهم... وبين حين وآخر تنقاد إلى غواية أن تقول لهم شيئاً لاذعاً جارحاً على غير توقّعهم! بل أحياناً تقضي ساعات تفكّر في كلمات يمكن أن تجرح مشاعرهم.

يتسمَّرون أمام شاشة التلفاز، وهي خلفهم، تحدِّق في رؤوسهم بنظرات ليس فيها ذرّة عاطفة؛ هذا هو الوضع الأبديّ بينهم، لقطة مثاليّة تعبّر عن علاقتها بأُسرتها، إنّها دوماً في الخلف... فكّرت في أنّه من الصعب على المرء أن يبقى على الحياد طوال حياته، وأنّه ذات يوم سوف يتمرّد وينسف أكداس النظريات التي ربُّوه عليها وسجنوه داخلها. نقّلت نظرتها الفاترة بين رؤوسهم، أحسّت بفظاعة التقدُّم في السنّ. كم تغيّرت هذه الرؤوس... كم كانت معجبة بشعر أُمِّها الغزير الأسود اللمّاع، الآن صلعتها تلتمع من خلال شعر خفيف أبيض.

تشعر وهي تنظر إليهم بأنّها تخترق زمناً مديداً مديداً نفق، الماضي بين نظرتها ورؤوسهم الماضي الحاضر بكلِّ ندوبه. غامت نظرتها، وتداخلت الرؤوس بعضها ببعض. عَبَرت نظرتها السنوات، وحطّت في محطّات كثيرة، صور، وذكريات، تنفض عنها رماد

السنين. تكتسي الذكريات معاني جديدة مع الأيّام... تذكَّرته بشيء من القرف، حبّها المدمِّر، الذي جعل كلّ رغبة في أعماقها تذوي. لوت شفتيها مشمئزّة، تحسّ بشفقة أقرب إلى الاحتقار نحوه. تُرى لماذا أحبّته؟! وكيف تحوّلت ذكراه إلى شيء بغيض... كانت في الثالثة والعشرين موظَّفة في مؤسَّسة المياه، تنتظر العريس، وتصون شرفها كما لو أنّها امرأة منسوجة من حرير لا يجب أن تُخدَش، وهو كان زميلاً لها في العمل، متزوِّج، ولديه أربعة أطفال... لكن في وجهه شيء يجعلها تطيل التحديق فيه، مزيجٌ من حزن واستسلام. ثمَّ إنّه يتعامل برقّة ولطف مع كلِّ الناس. ساعدها في عملها كمبتدئة، ثمّ وجدا نفسيهما منقادين إلى غواية الكلام: الكلام مفتاح القلوب. حدّثها عن زواجه التعيس ومسؤوليّاته المرهقة تجاه أولاده... ربّما أحبّته لنزاهته، لأنّه لم يطلب منها شيئاً على الرغم من أنّها تقرأ وَلَهَه بها، في عينيه، ومن خلال التنهُّدات العميقة المنفلتة من صدره وهو يتحدَّث إليها. أحبّته لأنّه كان مستسلماً لقدره، أن يمضي عمره مضحِّياً في سبيل أولاده، متحمِّلاً زوجة لا يعنيها شيء سوى الثرثرة والتسلية.

اتّفقا على الزواج، ورضيت أن يعيشا في بيت متواضع. لم تستطع مواجهة أُسرتها، فكتبت رسالة لأبيها ـ صاحب النظريّات ـ كما تسمِّيه، مؤلَّفة من تسع صفحات، تشرح فيها أنَّ سعادتها مع هذا الرجل.

انقصف مشروع الزواج، بهجوم صاعق من زوجة حبيبها، مدعوم بهجوم أكبر من والدها. أحسَّت بأنَّ يوم القيامة سيكون شبيهاً بهذا اليوم. جُنَّ جنون والدها. عكس وجهُه القرف وعدم

التصديق، من أنَّ ابنته التي أحسن تربيتها، ترضى أن تشيد سعادتها اللاَّأخلاقيّة على أشلاء أُسرة مؤلَّفة من زوجة وأربعة أطفال. لم تكتفِ الزوجة بمهاجمتها في بيتها، بل فاجأتها في عملها وبدأت بالصراخ والشتائم بأنّها إنسانة حقيرة وساقطة، وخاطفة أزواج...

انشلّت تماماً، وفقدت قدرتها على التفكير. عاشت ستة أشهر بإحساس شامل بالعار والفشل، وصارت دقائق حياتها مطوّقة بنظرات والدها القاسية: نظرات رهيبة تعجز عن وصفها تطّل من عينيه الجاحظتين الأشبه بكرتي زجاج: نظرات تلاحقها في أحلامها، فتوقظها من نومها وقلبها يخفق بعنف من الذعر... لم تدرك أنَّ والدها سيطر عليها تماماً بعد تلك الحادثة، وصار يعرف ـ من حيث لا تدري ـ كيف يجعلها تتصرَّف كما يرغب. غذّى إحساسها بالعار والندم، وأكثر ما يؤلمها حين يقول لها، بمناسبة ومن دون مناسبة، إنّها خيّبت أمله، وإنّه لم يفكِّر أبداً في أنَّ ابنته الرصينة تفكِّر في الزواج من رجل متزوِّج ولديه أطفال!

استماتت للحصول على رضاه، حتّى أنّها قالت ذات يوم لصديقتها بأنَّ إرضاء اللّه أسهل من إرضاء الأب. وبعد سنوات طويلة حين فرّت ابنة أخيها مع رجل متزوِّج، لم يعترض اعتراضاً يذكّر باعتراضه على زواجها، برطم بكلمات تافهة، ثمّ قال بأنَّ الرجل يحقّ له الزواج بأربع!

هبَّت يومها ثورتها مطوِّحة بصبر سنوات. كانت تجلو الصحون، وقعت أسيرة عاصفة غضب طوَّحت بالصحون أرضاً، وانطلقت كسهم من نارٍ من المطبخ لتقف أمام العجوز الذي أفقدته السنوات جبروتَه رغماً عنه. حدّقت فيه بعيونٍ من نار بينما فمها

مطبقٌ على مرارة هائلة. تبادلا نظرات متحدِّية ناريّته، لكنّها شعرت بأنّها هزمته. لم تحتج في الواقع إلى أن تقول أيّ كلمة. لقد قالت نظرتُها كلّ شيء، نقلت له كرهها الفظيع له، وأفهمته أنّه سحقها لسنوات لمجرَّد أنّها أرادت الزواج برجل متزوِّج، وأنَّ متعته العظمى كانت أن يلعب دور الديّان يُشعرها دوماً بالإثم، وأنّ أفكاره وقيمه التي كان يبثّها كلّ يوم في فضاء غرفتها الأشبه بقفص تحت ستار الأخلاق والشرف، ما هي إلاّ سموم أطفأت حيويّة روحها. إنّها تكرهه. لكنّها أدركت أنّها لم تهزمه مع الزمن، بل هزمته الشيخوخة وحدها القادرة على الهزيمة المؤكَّدة.

لم تملَّ روحها من العفّة، وماتت رغباتها تماماً للرجل. حتّى ذلك الحبيب البعيد صارت تتذكَّره بقرف. عجباً، كيف استطاعت أن تحبَّ رجلاً مسكيناً إلى هذه الدرجة، وما رَمَته سوى ضعف في شخصيّته.

عانس الأُسرة اللطيفة التي تسهر على راحة والديها العجوزين، وتحضِّر الحلويات اللذيذة لأولاد أخيها...

عانس الأُسرة المسكينة التي سفحت سنوات شبابها لإرضاء أب! ظلّت عيناه الجاحظتان المؤنِّبتان توقظانها من نومها على كوابيس مرعبة... محورها الأبديّ أب غاضب وابنة تستميت لمراضاته!

ارتسم الماضي من حيّز الفراغ بين عينيها ورؤوسهم... امرأة تشتعل بالغيظ، هذه هي الحقيقة. كم تكره أُسرتها. إنّها تعيش في سجن حقيقيّ أفظع من أن تستوعب آثاره الكارثيّة؛ سجن يعتمد على طوطم اسمه الأُسرة... ألم يسجنوها في تلك الحادثة

التي ألقت ظلالاً على حياتها كلّها... ألا تشعر كلّ لحظة بأنّهم يقيّمونها كإنسانة سيّئة الحظّ وفاشلة... متى ستكون سيّدة حياتها! متى سيكون هذا الصالون الفسيح لها وحدها. يا سلام، ما أروع تلك الفكرة. سيكون في إمكانها أن تغنّي بصوتٍ عالٍ، وأن تمشي شبه عارية، وأن تتحرَّر من إيقاع حياتهم المتشابك مع إيقاع حياتها... وما من أحدٍ منهم يتفرَّج عليها ويقيّمها؟ متى سيتحقّق لها ذلك إن لم يموتوا؟ ارتعش قلبها منتشياً بتلك الفكرة. أتنتظر موتهم حقّاً بتلك اللّهفة؟! تساءلت بخجل: تُرى، ألا يمكن أن أعيش بحرّيّة، إن لم يموتوا! انخلع قلبها وقد باغتتها فكرة ساخرة: قد تموتين قبلهم...

أتاها إحساس شبه مؤكّد بأنَّ هذا ما سيحصل... أسرعت إلى صديقها المفضّل الأكثر رحمة من كلّ البشر الذين عرفتهم، صديق تخبّئه تحت وسادتها. أخرجت علبة الدواء وتناولت قرصين من المنوّم... أغمضت عينيها راغبةً في نومٍ عميقٍ عميق، لا تنبثق من عتمته عينان جاحظتان مؤنّبتان.

عواطف دايت

تغيّرت حياة سعاد تغيّراً كبيراً في السنوات الأخيرة، وصارت تشعر بأنَّ تأقلمها مع الواقع الجديد يعني أن تقطع صلاتها أكثر فأكثر مع ماضيها. كم تحنُّ إلى ذلك الماضي، بل أكثر ما يؤلمها إحساسها أنَّ ذلك الماضي يستحيل أن يعود، تحديداً أن يعيشَ في هذا الزمن الذي اغتال أهمَّ شيء تحتاج إليه سعاد: الحنان.

لا تذكر سعاد بدقّة متى بدأت الثورة عليها! ومن قِبَل أقرب الناس إليها: زوجها وأولادها. وحين تحصر ذاكرتها لتحدِّد تاريخاً دقيقاً، تحسُّ بتشتُّت، لكنّها تتذكّر كيف بدأت انتقاداتهم الجارحة والمُهينة لطبخها، وكيف أجبروها على تغيير طريقتها في الطبخ: قائمة من الممنوعات، وقائمة جديدة فرضوها عليها. كانت تحاول فتح باب للحوار اللَّطيف معهم، لكنّهم كانوا يرفضون، ويتحدّثون إليها دوماً بلهجة آمرة.

عوّدت سعاد نفسها أن تُحبَّ كلَّ شيء يصدر عنهم ـ أحبّائها ـ لكنّها كانت بعد كلِّ حديث معهم تشعر بغصّة تخنق روحها. تُرى، أين تبدَّدَ اللُّطفُ والرقّةُ بين البشر! وحلَّ محلَّهما الفظاظة والعبوس! هل يتميّز هذا الزمن بغياب الابتسامة! كم تستعيد بخيالها نظرتهم

إليها، نظرات قاسية، كأنّهم يعيدون تقييمها ويُشعرونها بأنّها ما عادت تنفع في هذا الزمن، وغدت «دقّة قديمة»، وما عادت تصلح ـ بتركيبة شخصيّتها وثقافتها المتوارثة من جيل الجدّات ـ لهذا الزمن.

لكنَّ سعاد تنجح في جعل نفسها تتوازن، كملعقة على حافة كأس. أليس الحبُّ هو أن نبدعَ أوضاعاً للتأقلُم مع مَنْ نُحبّ! أوحتْ لهم بأنّها مقتنعة بما لا قناعة لها به، وأذعنت لرغباتهم في تحضير الطعام، وفي إعادة ترتيب أثاث البيت. سخروا من دموعها حين قرّروا رمي الثريّا التي ورثتها عن جدّتها. حاولت إقناعهم بأنَّ الثريّا أثريّة ورائعة، لكنّهم قالوا إنّها مبقّعة بالصدأ، وشكلها مضحك، وإنّها يجب أن تتخلّص من فكرة عبادة الماضي وأشيائه.

تتجاهل سعاد مشاعرها المُهانة وكآبتها، وهي تنصت إلى سياط كلماتهم. ولا يخطر ببالها أبداً أن تعاتبهم أو تلومهم، بل تلوم نفسها دوماً، وتعنِّفُ نفسها ساخرة: واللّهِ يا سعاد أنتِ مُضحكة، لم يعد من المقبول في زمن ثورة التكنولوجيا هذا، أن تكوني رومانسيّة وعاطفيّة إلى هذه الدرجة!

تحاول سعاد التستّر باللاّمبالاة، لكنّها تشعر دوماً بأنَّ روحها منسحقة وأنّها مُهانة في أعماق كيانها. وكم من المرّات استسلمت لنحيبٍ معذّب متقطّع. إنّهم يعلّمونها أن تشعر بما هو مفروض بها أن تشعر به... تدرك سعاد في أعماقها أنّها لا تعيش حياتها كما ترغب ـ حياتها الحقيقيّة ـ كما تسمِّيها، بل يفرضون عليها «حياة دايت». حياتها الحقيقيّة تراها تمرُّ أمامها، أشبه بنسيج يرقّ يوماً بعد يوم، ثمَّ يتمزّق وتملأه الثقوب... كلُّ شيء دايت: الطعام والشراب والكلام والعواطف! تحسُّ أنّها تشبه طائراً تائهاً في فضاء

لانهائيّ لا يعرف أن يستقرّ! أين مكانك يا سعاد؟ هل ما زلت سيِّدة الأُسرة؟ أم أنَّ عرشك انهار، وصرتِ سيِّدة على أشلاء ذكريات تستمدِّين منها العون لاستئناف أيّام جافّة؟

كم تتهرَّب من هذا السؤال الطالع من أعماق قلبها، وترفض الإجابة! لكن دموعاً حارقة تتدفّق من عينيها تفضحها... زوجها الغارق في مطالعاته الفلسفيّة يُميتها بأقوى سلاح في العالم: التجاهل. بالكاد يقول لها صباح الخير. تتلقّى تحيّة الصباح الطالعة من فمه كصفعة... لكنّها تردُّ عليه بـ«صباح الخير»، العبارة نفسها، لكنّها مبطّنة بالودِّ والحبِّ. يحدِّثها من دون أن ينظر إليها، حتّى أنّها صارت تتعمَّد أن تقف في مجال نظره لتضطرّه إلى أن ينظرَ إليها فيجيبها بأقصر أجوبة ممكنة مُصرّاً على ألاّ ينظر إليها!

حاولت مراراً التقرُّب منه وسؤاله عن قراءاته، فيسخر منها، ويتساءل من أين لها هذا الفضول؟ وهي غير قادرة على استيعاب قراءاته الفلسفيّة، بل إنّها لا تعرف شيئاً عن العباقرة الذين يقرأ نظريّاتهم وأفكارهم. تكبح غضبها وتتجاهل سهام التجريح منغرسة في قلبها. تودُّ لو تقول له: هل علّمك هؤلاء الفلاسفة قلّة الذوق وعدم احترام الآخر!

تتذكَّر المساءات الطويلة التي قضتها تكوي قمصان زوجها، وترتِّب جواربه وأشياءه بينما هو يتثاءب بلذّة غارقاً في قراءاته... هم أيضاً أولادها! ياه، كم خدمتهم كعَبْدة لا تتعب. امرأة للخدمة، هكذا تشعر، وهكذا عاشت حياتها. ماذا قدَّموا لها سوى ذلك الجفاء المهذّب، والمواعظ الفظّة التي تشعرها وتؤكِّد لها فشلها في التأقلم مع زمنهم.

ابنتها الصغرى التي ما كانت تنفصل عنها، ألقت على مسمعها محاضرة في الذوق واحترام خصوصيّة الآخر، لمجرَّد أنّها ردَّت على هاتفها الخلويّ. . .

لم تصدّق أنَّ ابنتها تحدِّثها بتلك اللهجة الساخطة الفظّة، وحين صرخت: وماذا في ذلك! أيّ جرم أن أردَّ على هاتفك الخلويّ. صرخت الابنة: لأنَّ هذا ليس من حقّك. فهذا شيء خاصّ بي.

وابنها يمنعها من ترتيب درجه الخاصّ، ويجلس كلَّ مساء ساعات أمام شاشة الإنترنت يتحادث مع أشخاص من الشرق والغرب، وينشئ معهم حوارات وصداقات غير شاعر بأُمِّه التي ترنو إليه بنظرات مشتاقة، وتتمنّى لو يتبادلان الحديث، أيَّ حديث، لكنّه يفضّل عليها الغرباء!

حتى ابنتها البِكْر المتزوِّجة، طلبت منها مؤخّراً ألاَّ تزورها بشكل مفاجئ، بل يُفضَّل أن تتَّصل بها قبل أيّام لتتفقا على موعد اللقاء!

صرتِ متخلِّفة يا سعاد، صرتِ «دقّة قديمة»، ما عدتِ تتماشين مع حضارة هذا الزمن. . . كأنَّ حضارة هذا الزمن تعني أن تطبخي أكلاً دايت، قليل الدسم والملح، وأن يأكلوه من دون أن يقولوا لك: تسلم يداك. الحضارة أن تشحذي كلمات من ابنك المنصرف عنك إلى محادثة غرباء عبر الإنترنت. . . الحضارة أن تتلصَّصي على ابنتك تتحدَّث هامسة بجهازها الخلويّ من دون أن تتجرّئي على سؤالها: مع مَنْ تتحدّثين؟

الحضارة أن تضطرِّي إلى تقليب محطّات تلفزيونيّة لانهائيّة، لتستقرِّي أخيراً على فيلم بالأبيض والأسود فينتعش قلبك، وتشعرين بوجيب الدم في عروقك، وتستدفئين بزمنٍ مضى...

الحضارة أن تتجاهلي التعليقات الساخرة لأفراد أُسرتك بأنّك لا زلتِ تستمتعين بأفلامك الأبيض والأسود الطافحة بدموع العاشقين وأغاني الغرام الحنونة... تبتلعين دموعك، تنظرين إليهم بوجه صار مدهشاً، وبعيون دامعة دوماً، وفم باسم... ولا تردِّين عليهم، لأنّك تختارين الصمت متّبعة حمية الدايت في الكلام أيضاً.

قبّـــــة خضراء نديّة

كنت أمشي إلى جانبه في شارع يبدو بلا نهاية، تتعانق أغصان الأشجار فوقه مشكِّلةً قبّةً خضراء عالية تتخايل منها أشعّة شمس لطيفة آيلة إلى الغروب. كنتُ مفتتنة بهذا الخضار السخيّ، أمّا هو ففقد إحساسه بالجمال حوله. توقّف فجأة. أشار إلى شجرة عملاقة جرداء تماماً؛ مجرَّد جذع هائل موصول بأغصان مقطوعة، وقال لي: هناك نوع من الأمراض النادرة التي تصيب الأشجار فتُميتها، داء لم يعرفوا له دواءً كالسرطان. أترين هذه الشجرة؟ كانت رائعة ثمَّ أصابها المرض فماتت، حاولوا كثيراً علاجها لكن عبثاً.

قلت له: قد يكتشفون دواءً جديداً يُشفيها.

قال: مستحيل، إنّها ميّتة منذ خمسة عشر عاماً.

شعرتُ أمام لهجة اليقين في كلامه عن الموت، برغبة في بثّ شيء من الحياة، قلتُ: اللّه أعلم، هناك معجزات في هذه الحياة، قد تعيش الشجرة ثانية.

ابتسم مستخفّاً بكلامي وقال بلهجة قطعيّة: هذا مستحيل،

فبعد الموت لا توجد حياة. أصررتُ على المُضيّ في أوهام الأمل: قلبي يحدّثني أنّها ستعيش.

كنتُ أتأمَّل الشجرة البائسة وسط بحر الخضار حولها. كم كانت مُهانة ومكسورة الخاطر مثلي. تنبّهتُ فجأة إلى أنَّ حديثنا عن الشجرة ينطبق تماماً على علاقتنا، إذ إنَّ مشاعره تجاهي انطفأت، أمّا مشاعري نحوه فلا تزال دافئة، وجسدي يتوق إلى لمساته كتوق الأوراق الخضراء اللمَّاعة إلى أشعّة الشمس.

كنّا نسير متجاورين، يفصلنا شرخ من الهواء العازل. كنتُ أتعمَّد أن أُلامسه بطريقة تبدو عفويّة وأشعر كم هو حَذِرٌ من لمسي. كان جسده يعطيني إشارات خفيّة أشبه بذبذبات كهربائيّة بألاّ ألمسه، وكنتُ أتأمَّل بحزن أقرب إلى القنوط كيف تموت علاقتي به. فجأة صار موغلاً في عزلته، وفي ألمه الخاصّ. غرق به ولم يشأ أن أُشاركه إيّاه. كنت أُفكِّر إن كان الألم يجعل الإنسان وحيداً، أم أنَّ بعض الناس يفضِّلون العزلة حين يمرضون.

قلتُ له لأني ما عدت أحتمل ثقل الصمت بيننا: أتعرف، أُحبُّ أن أُسمِّي هذا الشارع شارع العشّاق.

تعمَّدتُ أن أصمت كي يسألني لماذا؟ فلم يكترث بكلامي، فتابعت: لأنَّ الأغصان تتعانق فوقه مشكِّلة قبّة.

لم يُعلّق، ولم يبدُ عليه أيّ اكتراث بكلامي. منذ إصابته بالسرطان صار يتعمَّد أن يُشعرني بأنّي تافهة. تنبّهتُ كم غدا منغلقاً على نفسه، وكم أنّه يُقصيني عن حياته على الرغم من أنّي أعيش معه تحت سقف واحد.

وجدتني أعمل مقارنة بين جمال البدايات وبشاعة النهايات. لم أكن أُفكِّر فيه تحديداً، بل في تلك اللّحظات الجميلة في الحياة، التي تبدأ فيها المشاعر بالانجذاب والأفكار بالتلاقي والعينان بالالتماع. ياه، اكتشفت لأوَّل مرّة أنّه لم يعد يحبّني من نظرته، من انطفاء ذلك اللمعان الدافئ في عينيه. كم صارت عيناه غريبتين، آمنتُ بصحّة ذلك القول: العينان مرآة النفس. استدار ليعود إلى المنزل من دون أن يسألني رأيي.

منذ إصابته بالسرطان وعراكه مع الآلام والأدوية التي تُهينه بتأثيراتها أكثر من الألم نفسه، ما عاد يُشركني بشيء. يعيش متوحِّداً مع آلامه. يرفض أن أُناقشه بأسلوبه الخاطئ في التعامل مع الألم. ينظر إليَّ بقسوة هائلة إلى درجة تنهار مقاومتي فأنفجر بالبكاء فيتركني لدموعي ويخرج من الغرفة... لم يكن من السهل عليَّ تقبُّل الواقع الجديد، فقد جمعني به حبٌّ لم يعرف الفتور طوال عشرين عاماً. كنّا نقدِّم مثالاً حيّاً لزواج ناجح. وكم كنتُ سعيدة بأنّي لا أزال أحرِّك أشواق رجل. كلّما اقترب منّي يُشعرني كأنّه يُقبِّلني للمرّة الأُولى، بالشهوة الطازجة نفسها والحنان العميق المختزن في روحه... كانت صدمة قاسية يوم اكتشف طبيبه إصابته بسرطان البروستات بعدما انتقل المرض الخبيث إلى الدمّ والعظام... تلقّى الكارثة بكبرياء. لم يعلّق بكلمة واحدة، ورفض حناني منذ اللّحظات الأُولى، وقابل رقّتي وحبِّي بازدراء. كم كان صعباً عليَّ أن أُراقب قساوة نفسه وأُقارنها مع رقّته في ما مضى، فأجلس لساعات أتذكَّر دفء علاقتي معه كما لو أنّني أستعيد حُلماً. كم من المرَّات انفجرت باكية وأنا أخلع ملابسي. كان

يحبُّ أن يتأمَّلني وأنا أنزع ثيابي. يقول إنّه يحسُّ بإثارة ويشعر كم أنّه لا يزال يشتهيني. بعد مرضه ما عاد جسدي يعني له شيئاً. إذا جلستُ قربه ولامسته أشعرُ كما لو أنّي امرأة من حجر. صارت صوره وهو يحبّني ويقترب منّي تتراءى أمامي دوماً وتُوجع كلّ خليّة في جسدي. . . أصررتُ على أن أعيد الدفء إلى العلاقة بيننا. لم يعد يعنيني أنَّ علاقتنا الجنسيّة انتهت تماماً بحكم الأدوية والجراحة التي تعرَّض لها، فلتبقَ علاقة الروح.

الحبُّ هو توق في الأساس، توق عميق يزلزل الوجدان والكيان، ويدفع العاشق باتِّجاه المعشوق، فلماذا يتهرَّب منّي وينكفئ على آلامه؟! كنت أُحاول أن أجد له أعذاراً، فهو رجل ناجح وذو مكانة اجتماعيّة مرموقة، وإحساسه بكرامته عالٍ، لكنّي زوجته وحبيبته، فلمَ يُقصيني عن حياته بتلك القسوة الوحشيّة؟

قرَّرت أن أتعبَّد له. تضاعَفَ حبّي له أضعافاً كثيرة. اكتشفت أنّه ليس من حبٍّ أعظم من حبِّ إنسان مريض ومتألِّم. كنت أتملّقه بصمت وصبر بانتباهي الشديد إلى كلِّ حركة يقوم بها، بإحساسي العميق به. أُحضر له ماءً قَبْلَ لحظة من إحساسه بالعطش؛ أحفظ مواعيد أدويته أكثر منه، وأستيقظ من عزِّ نومي في اللَّحظة التي يتسلَّل فيها القلق إلى جفنيه. لم يعد يطيق هذا الحنان الذي أُظهرُه له فيقابلني بازدراء، وكثيراً ما يطلب منّي الخروج من الغرفة. ثمّ لم يعد يُكلِّمني إلاَّ نادراً، ويعذِّبني بقلّة كلامه. صار يستعمل الإيماء والإشارة معي كي يعذِّبني بصمته أكثر. كنت أخجل من حاجتي الماسّة إلى لمساته وقبلاته. وكثيراً ما كنت أتجاوز كرامتي وصبري فأقترب منه شبه عارية أطلب إليه أن يلمسني، فكان ينظر

إليَّ ببرود ساخر يجعل جسدي يقشعرّ، وأُسرع إلى ارتداء ثيابي مبلَّلة بالعار كما لو أنّني عارية أمام غرباء.

في لحظات نادرة، تزداد تباعداً، كان يعود رقيقاً معي فيلبّي اقتراحاتي بأن نجلس في مقهى أو نتعشّى في مطعم. كنتُ أشعر به كيف يتفرَّج على الناس بسكون تام وبنظرة ثابتة باردة لا تحيد عن التفرُّج على مظاهر الحياة حوله، وثمّة جرح هائل في روحه... أحياناً كنت أضطرُّ إلى الدخول إلى الحمَّام أذرفُ دموع قهرٍ فاضت بها روحي وأكتم شهقات احتجاج تجاه قدر وحشيّ.

اكتشفتُ أنَّ المرأة العاشقة قديسة، فأنا أزداد حبّاً له على الرغم من أنّه يتجنّبني كما لو كنتُ وباءً. كم كان صعباً العيش مع رجل منهمك بآلامه الخاصة. اكتشفتُ أنّي كلَّ صباح ألبس شخصيّةً خاصّةً قوامها الصبر والتحمّل؛ كلّ صباح أُجدِّد مؤونتي من الصبر وأُصلِّي لإله طال امتحانه لي، أن يجعل قلبه رقيقاً... رجل حياتي يتجنَّبني، يتناول طعامه وحيداً، يعدُّ لنفسه الشاي من دون أن يسألني إن كنت أرغب في القليل منه؟! استسلمَ لزمنه من دون اكتراث، وصرتُ أشعر بأنَّ من واجبي الاعتذار إليه كلَّ صباح لأنّني بصحّة جيّدة. كنتُ أخجل من مظاهر العافية والنضارة في جسدي، فلم أعد أتجمّل، وأتظاهر بالتعب وأشتهي المرض، عساني أتوحَّد معه من جديد حين ينكسر جسدي.

كنّا نعيش في منزل جميل من طابقين. بعد مرضه صرت أكره البيت الذي جمعنا عشرين عاماً، وتمنَّيت لو كان من طابق واحد، لأنّه صار يهرب منّي. فإذا كنتُ في الطابق العلويِّ هرب إلى الطابق الأوَّل. تجرَّأت ذات يوم وبكيت وصرخت أمامه بأنّه لا

يحقّ له الانتقام منّي، وبأنّني أُحبّه وأرغب في أن أخفّف آلامه. أذهلني ردّ فعله. قال إنّه لا يطيق حناني ولا شفقتي، وإذا كرَّرتُ هذا الموقف فالطلاق هو الحلّ الوحيد بيننا...

«عيشي إلى جانبي كظلّ»، هذا ما يريده. و«إيّاكِ أن تنظري في عينَيّ». كم صار بارعاً في التهرُّب من تلاقي نظراتنا، وفي اللّحظات النادرة التي تتقاطع فيها نظراتنا كنّا نرتعش، شاعراً كلّ منّا بطريقته الخاصّة بأنّنا أمام نهاية مُرّة، نهاية حبّ عاش طويلاً ونهاية حياة أيضاً. كنّا نشعر بأنّنا لسنا سوى دمى في يد قدر يملك سلطة مطلقة علينا... أقرأُ في قاع نظرته إحساسه الأليم بأنَّ كلَّ لحظات حياته مشدودة بانتظار الموت... لكن، كم أكتم صراخاً أخرس «دعني أحبَّك ما بقي من عمرنا...».

كنتُ أمشي إلى جانبه على إيقاع خطواته، منصتةً بانتباه تامّ إلى وقع مشيته الذي صار يملأني قلقاً... فجأة ومن غير توقّع هبّت ريح قويّة؛ ريح خضّت الأشجار فرقصت الأغصان بقوّة وفاحت رائحة أخّاذة، رائحة شهوة، شهوة الأُمّ إلى الطبيعة. جعلني صوتُ الريح فجأةً أحسُّ بافتتان، وفجّر في أعماقي طاقات هائلة من التوق إلى الحبِّ والحياة. تمنَّيت لو آخذه بين ذراعيَّ أُشبعه قُبُلاً وأغسل جسده بدموعي عساها تُشفيه من السرطان... لكنّي لم أجرؤ على لمسه، فأغرتني الريح بأن أتبعها. وجدتني أُفلت ذراعه النحيلة التي أتأبَّطها وأستأذنه بصوت تخنقه الدموع بأن أركض... لا أعرف إن كانت قدماي تلامسان الأرض أم كنت أطير... لكنَّ الريح حملتني بعيداً بعيداً، حتّى لامستُ قبّةً خضراء نديّة مسحتْ وجهي المُتعبَ بنسغ الحياة.

يكفي أن يحبّك قلبٌ واحدٌ لتعيش

يكفي أن يحبَّك قلبٌ واحدٌ؛ هذا ما كانت تردِّده في غرف روحها العميقة جدّاً، لصغيرها الأبله ذي السنوات الأربع، وهي تحتضنه في عيادة طبيب الأسنان وتمسح لُعابه الذي يسيل من فمه المشتور. كانت لا تستطيع مواجهة نظرات الناس الوقحة والصريحة المحدِّقة إلى صغيرها المعتوه، الذي يثير الدهشة والسخرية والتعليقات الهامسة وأحياناً المسموعة. تتحوَّل النظرات إلى طعنة عميقة في قلبها المتضخِّم بحبِّ هذا الصغير المسكين البريء من جنونه وتخلُّفه.

أفلت صغيرها من ذراعيها المتصالبين أمام صدره واتّجه بخطوات متعثِّرة. لكأنَّ مفاصله متخلِّعة صوب طفل صغير يماثله في العمر، وقف أمامه وهمهم بصوتٍ اجتهد أن يجعله كلمات لكنّه كان أشبه بالجعير. أجفل الطفل السويّ والتجأ إلى حضن أُمّه صارخاً بجزع: ماما، ماما، أبعدي هذا الطفل البشع عنّي.

طَمْأنت أُمُّ الطفل السويِّ صغيرها قائلة وهي تربت على كتفه: لا تخف، لا تخف، لن يؤذيك.

قامت الأمُّ ذات القلب المطعون بحربة منذ أربع سنوات، تُعيد صغيرها المجنون إلى أَسر ذراعيها، تبتلع دموعاً تعوّدت طعمها المُرّ وتتساءل في سرِّها: لماذا تأخَّر الطبيب؟ أما كان قد حدَّد لها موعداً تمام الساعة الخامسة والنصف؟

ركنَ المجنون الصغير بين ذراعي أُمِّه، لكنّه أخذ يُصدر همهمات وحركات عشوائيّة لاإراديّة من أطرافه، بينما أُمُّه تدفن وجهها في شعره الأسود الكثيف هاربة من حصار النظرات.

لم يخطر لها يوماً أن تكون أمّاً لطفلٍ مُشوَّه متخلِّف ومجنون كما شخَّص له الأطبّاء. اللّعنة على الأطبّاء. كم تكرههم. ما ابنها إلاَّ ضحيّة لأخطائهم وللظروف، هذا ما تؤمن به. ولدته طبيعيّاً، سمعت صراخه الأليم وهم يفصلونه عنها، ضمّته بحنان إلى صدرها وشعرت كيف تفجّر الحبُّ فجأة من صدرها كانفجار خزّان كبير.

لسوء حظِّه كان اليرقان الذي أصابه بعد أيّام من ولادته شديداً صبغه بالبرتقاليّ الداكن. كان يجب نقله فوراً إلى الحاضنة لكنَّ الحاضنات الثلاث في المستشفى كانت معطوبة. وقد رأتها بنفسها كيف تسرح فيها الصراصير الصغيرة، صرخت بقرف: صراصير في حاضنة للأطفال؟!

ردَّت الممرِّضة بلامبالاة: إنّها معطَّلة منذ أكثر من عامين.

أخذ الصغير يختلج بقوّة، رامياً ذراعيه خارج جسده، كأنّه يتخلَّص من شيء ثقيل يرزح على صدره وتدور عيناه في محجريهما إلى الوراء لتتحوَّلا إلى بياض تامّ. كان دماغه قد تأذّى

بشدّة حين عثروا أخيراً على حاضنة في مدينة تبعد أكثر من ساعتين عن مدينة الوليد.

انهارت الأُمُّ حين أكَّد لها طبيب الأعصاب أنَّ دماغ ابنها قد تأذّى أذيّة كبيرة لعدم إدخاله الحاضنة... صرخت ملتاعة وهي تتلوّى ألماً كدجاجة مذبوحة: واللّهِ، نحن نعيش على كفّ عفريت، نعيش في هذه الحياة الحقيرة بقدرة قادر.

لم يخطر لها في يوم من الأيّام أن تكون أُمّاً لمعتوه. المجانين الذين كانت تصادفهم في الشارع لم تكن تعيرهم أيّ اهتمام، لكأنّهم ليسوا بشراً، إلاَّ إذا أجبرها المجنون على أن تلتفت إليه بسبب تصرُّفاته المضحكة والخرقاء، فكيف وقد تحوَّلت إلى أُمٍّ لمجنون صغير، لمعتوه بريء من علّته.

الأُسرة كلُّها تمنّت للصغير الموت وهو لم يتجاوز الشهر من عمره. زوجها الذي كانت تحكي لصديقاتها عن أنَّ أروع صفة لديه: الحنان، كان يصرخ متألِّماً: لا أُريد ولداً مشوَّهاً. ليته يموت، ليته يموت. كانت تخاطبه هامسة كأنّها تحدِّث نفسها: لكنّك والده! فيرمقه بألم وغيظ ويقول: لكن انظري إليه، أهذا طفل! فتضمُّه بحنان شديد إلى صدرها كأنّها تتمنّى لو تعيده إلى رحمها وتسكب على يديه دموعاً غزيرة وهي تبوح له وحده بأنّها تحبُّه بجنون، ولا تستطيع أن تتمنّى موته قطُّ.

طوال أشهر نسيت أخاه الأكبر. صار الصغير المشوَّه هاجسها. لم يمشِ حتّى السنتين وستة أشهر ولم يتعلَّم النطق. تعايش الأب مع الجرح بأنجح وسيلة: تجاهَلَهُ. أهمله ونفاه إلى الضواحي القصيّة من حياته، صابّاً كل اهتمامه على ولده السليم.

وحدها الأمُّ كانت تشتري للمعتوه ثياب العيد ولا تملّ من غسل ملابسه التي يلوِّثها عامداً مذعناً لشياطين تتلبَّس روحه، تأمره بأن يعفّر نفسه في التراب وأن يسكب محتويات صحنه على ثيابه ورأسه. كانت تضرب ابنها السليم حين يضرب أخاه المجنون وتهدِّده بحرمانه من حلوياتها التي كانت تحضِّرها خصِّيصاً للمجنون الصغير.

أجهدت نفسها في تعليمه الكلام، على الرغم من أنَّ كلَّ الأطبّاء نصحوها بأن لا فائدة في جعله ينطق، لكنّها توصَّلت مع الأيّام إلى جعله يهمهم، وكانت وحدها قادرة على ترجمة تلك الهمهمة.

كان زوجها يتضايق من شدّة اهتمامها بالصغير المتخلِّف، ويشاجرها لإهمالها أُسرتها، مؤكِّداً لها أنَّ الرحمة الحقيقيّة للجميع بأن يموت هذا المسخ.

لم تكن تستطيع تخيُّل خلوّ حياتها منه. إنّها تحبُّه بجنون، تحسُّه قطعة منها، هذا المعتوه الصغير الذي يفاجئها في لحظات خاطفة كيف يرنو إليها بعينين تفيضان وَجْداً. ما أجمل عينيه قبل أن يغفو، ما كان ينام إلاَّ وهو يُطيل التحديق في وجهها فتحسُّ بالتحوُّل البطيء والتدريجيّ لملامح وجهها، تحسُّ بالحنان يرفرف حولها كفراشات من نور.

ذاتَ يوم، سالت دموعه من شدّة تحديقه في وجهها. حين كانت تبتعد كان يُصدر أصواتاً متألِّمة تضطرّها إلى العودة إليه. كانت وحدها دنياه، دنياه الغنيّة بالحبِّ والتي لم يستطع ذوو العقول المحدودة المتباهون بصحّتهم العقليّة، أن يُدركوا كُنْه حبِّ المجانين للعالم.

لم يصدِّقها أحد من أفراد أُسرتها حين كانت تصف لهم حساسيّة الصغير العالية ورقّته وذكاءه الخاصّ... ذات يوم حين كسر مزهريّة من الكريستال، ضربه والده بقسوة وهو يهزّه من كتفيه النحيلتين قائلاً: اللّه يلعن الساعة التي شرّفت بها إلى الدنيا، واللّهِ لقد جعلت حياتنا جحيماً، لكنّي لا ألومك، بل ألوم التي تفوقك جنوناً: أمّك.

التجأ يومها بخطواته المتعثّرة ومشيته المخلّعة إلى حضن أُمّه. رمى نفسه في حضنها وهو يرتعش خوفاً كجروٍ صغير أفلت لتوّه من انقضاض وحش مفترس عليه.

كان يبكي ويهمهم بأصوات مخنوقة مبهمة أشبه بالخوار، واللُعاب يسيل بغزارة من فمه. ضمَّته إلى صدرها، رشفت دموعه بشفتيها، مسحت لُعابه بكمِّ فستانها، هدهدته حتّى غفا... كانت تتجاهل نظرات زوجها الغاضبة، وحين لم يعد يطبق صبراً، هزّها من كتفها قائلاً: ما عادت عيشتنا عيشة، أُفكِّر في أن أُلحقه بمدرسة للمتخلّفين عقليّاً.

صرخت: لا، لن أسمح بذلك ما دمت موجودة.

- لكنّه خرَّب نصف أغراض المنزل، وهو لم يكمل الرابعة من عمره بعد.

- قالت باكية: لا، أرجوك، يستحيل أن يعيش في مصحٍّ للمعوقين.

- صرخ: لماذا؟

لم تستطع أن تجيب في الحال، لكنّها تمكّنت بعد لحظات

من جمع شتات نفسها. قالت وهي تحسُّ أنّها تسيل حبّاً كماء مقطّر يغسل الصغير: لأنّني أحبُّه أكثر من أيِّ شيء في الدنيا. انطفأ الرجل، لوهلة. شعر بأنَّ كلماتها خدّرته كالبخور. كان يشعر بالخدر كلّما استنشق بعمق رائحة البخور، هل كانت كلمات زوجته متشكّلة من بخار روحها المتألّمة؟

صارت فائقة الرقّة مع مجانين الشوارع، تتساءل بشفقة: ما ذنبهم؟

كانت تفكّر طويلاً في منطق جدّتها في تفسير وجوه البشر المشوّهين والمتخلّفين: كي يتمجّد اسم اللّه. لم تكن تقبل هذا المنطق أبداً، تردُّ بسخطٍ على جدّتها: لكن اللّه لا يحتاج كي يتمجَّد اسمه إلى أن يخلق بشراً غير أسوياء يتعذّبون ويعذِّبون أُسرهم معهم. لكنَّ الجدّة تصرُّ على تفسيرها، وتستشهد بآيات من الإنجيل، حين سأل أحدهم يسوع المسيح: أيّ ذنب اقترفه هذا المسكين المسكون بالشياطين، حتّى يكون مجنوناً؟

قال المسيح: لا ذنب اقترفه، بل ليتمجَّد اسم اللّه.

انفتح باب غرفة الانتظار فجأة. أطلَّ الطبيب، نظر إلى ساعته معتذراً لها قائلاً: أنا آسف، لم أتوقّع أنّ حالة السيِّدة معقّدة هكذا.

كانت سيِّدة مُفرطة الأناقة، تخرج من غرفة الفحص، تضغط قطعة من القطن بين فكّيها، وحين لمحت الطفل شهقت ورسمت بآليّة علامة الصليب على صدرها.

تحفّزت الأمُّ وصفعتها بقوّة بخيالها، لكنّها حملت الصغير ولحقت بالطبيب إلى غرفة المعاينة.

كان يدير لها ظهره، يغسل أدواته، ويقذفها في صينيّة معدنيّة إلى جانب المغسلة. قال لها: خير، هل عاد الضرس نفسه يؤلمك؟

قالت: أقصدك هذه المرّة لأجل الصغير.

تعوّدت على نصال الألم تنهال بلا رحمة مخترقة قلبها. كلّهم يذهلون حين تعتني بابنها المعتوه. كانت تصرخ أحياناً: لكنّه روح، روح.

كانت لهجته تعني تحديداً: هل يستأهل هذا المسخ عنايتك؟

لم يسمح المعتوه الصغير للطبيب بفحصه إلاّ وهو في أحضان أُمّه. أخذ وجه الطبيب يزداد قتامةً وهو يمعن في جوف فم الصغير.

قال للأُمّ بعد أن انتهى من فحصه: تشوُّه شديد في الفكّين والأسنان. الحالة صعبة جدّاً، ومكلفة للغاية. أرى من الجنون التفكير في تصحيح تشوُّه فظيع كهذا...

سألت وكأنّها لم تسمع كلامه: ما الكلفة يا دكتور؟

حدّق الطبيب إلى وجه الأُمّ المتيَّمة حبّاً وقال: الكلفة كبيرة، لو أردتِ أحسبها لكِ. لم يكمل لأنَّ بقايا وجدان ذكَّرته بأنّها أُم.

قالت: المال لا يهمّ، سأتدبَّر الأمر.

رفع الطبيب كتفيه لامبالياً وقال: كما تشائين، لكن من واجبي أن أقول لك: حرام هدر المال.

خرجت من عيادة الطبيب تحمل ابنها، كانت ذراعه اليسرى تحيط بعنقها وتعبث بشعرها. وذراعه اليمنى نصف المشلولة تنسدل

مرتخية على صدرها. كان حاجز صدره النحيل ينقل إلى صدرها إيقاع دقّات قلبه. تناغم إيقاع القلبين مع إيقاع خطوتها. وعَتْ بعمق كيف يتوحَّد قدرهما بالحبِّ. الحبُّ صليب، صليب جميل. انتظم إيقاع القلبين وطغى على ضجيج الشارع وصوت المذياع الملعلع. تحوّل الإيقاع إلى كلمات مبهمة أخذت تزداد وضوحاً مع تسارع خطواتها.

كان قلبها يغنّي بسرور باكٍ: يكفي أن يحبّك قلب واحد كي تعيش، يا صغيري البريء، يا طفلي الرائع.

توقّفت عند إشارة المرور. تنبّهت إلى أنّه غفا على كتفها. قبّلت وجنته المندّاة بلُعابه. أحسَّت أنّها ترشف عسلاً. دمعت عيناها وهي تتمنّى له أحلاماً سعيدة.

رحلة درب الآلام

منذ ثلاث سنوات والكاتب الشهير يعاني عدم القدرة على التركيز، فلا يستطيع إكمال قراءة مقالة في جريدة أو إنهاء قراءة كتاب. يسيطر عليه شعورٌ عبثيّ بأنّه فاشل ومنافق برغم نجاح رواياته والدويّ الهائل الذي أحدثه كتابه الأخير عن سيرته الذاتيّة. لكن كلّ هذا النجاح لم يزد الكاتب الشهير إلاّ إحباطاً وكآبة، وتلبَّسته حالة من الضجر العميق الأقرب إلى الشعور بالاختناق، لا تنفع معها كل الأساليب والحيل الترفيهيّة!

وقف الكاتب الستّيني أمام المرآة، تأمّل وجهه المجرّد من الحيويّة، وتساءل بسخرية: أَأَنا ناجح؟! عيناه مطفأتان. أحسّ أنّ بؤبؤي عينيه السوداوين أشبه بحفرتين تطلاّن على هاوية سحيقة. تعكّر قليلاً. ليست هاوية بل «ثمّة سجن في قاع روحي». كانت هذه العبارة التي تفتّقت في عقله من دون تفكير، أشبهَ بشرارة نور أضاءت ظلمات روحه. أحسّ كمن تهزّه حمّى أو يصيبه انقشاع مفاجىء. دبّت رجفة في أصابعه ونَمَلٌ خفيفٌ في وجنتيه وشفتيه. تذكّر طفولته، فحين كان يرتعب من شيء كان نَمَلٌ خفيف يسري في وجهه.

تُرى، ما الذي يرعبه الآن وهو يجلس على عرش شهرته متوِّجاً سنواته الستين بإكليل المجد؟ ما الذي خضَّ روحه بهذه القوّة الأشبه بزلزال يكاد ينسفه وينسف نجاحه من جذوره؟

تهاوى على المقعد. لم يعد قادراً على مواجهة صورته المنعكسة في المرآة، فليعترف لنفسه بأنّه أسير قلق مَرَضيّ، لم ينجح في التغلّب عليه برغم استشارته أشهرَ الأطبّاء.

ازداد إحساسه بنَمَل وجهه ورجفة يده. استنجد بكأسٍ من الويسكي. تأمّل بقرف عشرات زجاجات الكحول من أفخر أنواع المشروبات الكحوليّة، كلّها هدايا من مسؤولين يتملّقهم ويتملّقونه... جرع جرعة كبيرة من الشراب الذهبي عساه يهدّئ وجع روحه المباغت والحادّ. لم يفهم عمق ما يدور داخله من صخب انفعالات عنيفة وصراعات حادّة، فهو لا يرى إلاّ السطح، سطح أعماقه المظلمة التي يخشى إنارتها بنور الحقيقة. عليه أن يمتلك ـ ولو لمرّة واحدة ـ شجاعة مواجهة الذات.

جرعة أخرى من الويسكي حرقت أحشاءه ودفعت الدموع إلى عينيه. أطلقَ بخاراً حارّاً من فمه متشمّماً بلذة رائحة المشروب الواخزة. ذكّرته هذه الزفرة بشعر جميل قرأه منذ مدّة:

كـلُّ زفـيـر يـذكّـرنـي
كـم مـن الأشـيـاء
عـلـيّ أن أطـردهـا
مـن حـيـاتـي

حدّث نفسه: أجل أيّها التافه، يجب أن تنقّي روحك من

أوهامها. انطفأ الكاتب الشهير بعد العاصفة المباغتة التي زلزلت كيانه وحلَّ صمتٌ ثقيلٌ، صمتٌ تامٌّ، لفّ كيانه كوشاح. أمكنه أن يسمع في عمق السكون صوت أفكاره الحقيقيّة، وليس الأفكار المفبركة التي يخدع نفسه والناس بها! فهم لأوّل مرّة سبب إحساسه الدائم بالقرف والاشمئزاز من كلّ شيء؛ من الناس، من عاداتهم، من نمط حياتهم، من برامج التلفاز، من النشاطات الاجتماعيّة والثقافيّة التي يشارك بها، من الكلام الطنّان المتملّق المقزّز... في الواقع أنّ إحساسه بالقرف ليس بسبب كرهه للعالم حوله بل بسبب كرهه لنفسه... إنّه يحتقر ذاته في أعماقه لكنّه يطمس هذا الشعور. وحده يعرف أنّ كلّ كتاباته لا قيمة لها. صحيح أنّه موهوب وأسلوبه آسر ورواياته طُبعت مرّات عدّة، لكنّه لم يلامس أبداً في كتاباته وجع الناس الحقيقي، لم يملك يوماً شجاعة قول الحقيقة. إنّه يعرف عَصَب شهرته القائم على التلاعب بمشاعر الناس؛ هؤلاء المساكين الذين يعانون الكبت العاطفي والفكري، يعرف كيف يدغدغ أحاسيسهم ويستفيض في وصف مشاهد عاطفيّة جنسيّة، ويبتكر لهم قصصاً تحكي عن بطولات زائفة وعن أناس مغامرين. لكن كلّ كتابته مغلّفة بضباب ليس في قلبه بصيص نور، هذا النور النابع من الحقيقيّة وحدها.

كان نجاحه الحقيقيّ أنّه عرف تماماً كيف يتقي أوهامه أو مواضيع كتابته، فكلّ ما يكتبه نوع من البلبلة الذهنيّة. أحسّ، وهو جالس كحطام رجل، أنّه يهتدي للمرّة الأولى إلى أفكاره المدعومة بصدقه. أشعل غليونه ونفث الدخان الكثيف. تذكّر كيف استخدم

غليونه كأحد ديكورات نجاحه ككاتب، وكيف، كان يقدّمه للمعجبات، وكيف كنَّ ينفثن الدخان ويطلق تعليقات وغزلاً يحسّ الآن كم هو مقرف.

اعترف لنفسه وهو يجدّد جرعة الويسكي، بأنّه أجبر نفسه لسنوات طوال على الاعتقاد أنّ كتاباته هامّة ودليل موهبته. ياه. . . كم يعصف به الغثيان والقرف من نفسه! أيضع نفسه على المحكّ الآن؟ أم يخنق يقظة ضميره المتأخّرة ويستمرّ بوهم النجاح؟

انتفض من مكانه واتجه بحماسة حقيقيّة إلى طاولة كتابته. لا يمكن طمس صوت الضمير. تحدّته ورقة بيضاء، أحسّ أنّ بياضها يفضح عتمة روحه، سألته ساخرة: أتجرؤ على أن تكتب عن الديكتاتور؟!

شعر بأنّ مفاصله تتخلّع من الرعب، لكنّه في الواقع رعب مبطّن بلذّة هائلة، لذّة قول الحقيقة وحافةُ المقصلة تلامس الرقبة. أمسك القلم بتصميم، وتدفّقت الكتابة منه. أحسَّ لأوَّل مرَّة أنّ الكتابة أشبه بالاستعداد لرحلة درب الآلام. كانت ليلة فسيحة الإثارة والرعب وهو يكتب بيد مرتعشة سطراً بعد سطر، شاعراً لأوّل مرَّة في حياته بأنّه يكتب كي يربح نفسه وليس ليربح العالم.

ملأ صفحات. . . لم يُصدّق أنّه انتصر على ذاته. أفلتَ القلم، حدّق في أوراقه مفتوناً بكتابته. فكّر وهو يعيد قراءة ما كتبه، في أنَّ نجاحه الزائف حرمه من إنسانيّته. ياه، ما أصعبَ أن يكون النجاح فخّاً؟! ما قيمة اسمه يُتداوَل، وندوات تناقش أعماله، وعشرات بل مئات مقالات المديح بما يكتب؟ ما قيمة كلّ هذا

كم من المقالات والقصص كتبها مَديحاً بالديكتاتور!

ها هو الآن يصفّي حسابه مع نفسه ويحاول استعادة ملامح إنسانيّته التي شوّهها النفاق والخيانة، وحيداً مع أوراقه يحسّ بالفخر لأنّه كتبها. لسعته برودة رعب خفيّ جعل دقّات قلبه تتسارع، إلاّ أنّه كان يتذوّق طعم شعور رائع لم يتذوّقه أبداً. أهو طعم الكرامة!

فكّر في أنّ لغته الآن حيّة؛ لغة شاهدة للحقيقة وليست شهادة زور. كلّ كتابته كانت جعجعة.

وما الجوائز التي نالها من كلاب الديكتاتور سوى دليل على زيفه وخياناته.

انهمرت دموعه سخيّة. الويل لكتابة لا تلامس الحقيقة. الويل لكتابة لا تلامس الحقيقة. كان يصرخ بصوتٍ عالٍ بهذه العبارة تاركاً دموعه تسير في أخاديد وجهه.

ضمّ أوراقه إلى صدره بحنان. حانت منه التفاتة ليرى بطاقة مذهّبة، بالغة الفخامة والأناقة بمناسبة مرور ربع قرن على تسلّم الديكتاتور الحكم، وعليه أن يُلقي خطاباً... ماذا لو قدّم تلك الأوراق... عندها ستكون له الحرّيّة في اختيار شكل موته بعد أن عجز عن اختيار شكل حياته اللائق.

مزّق بطاقة الدعوة... حدّق في أوراقه بعينين نفيضان بدموع الندم. ذابت الكلمات في دموعه، تحوّل الحبر إلى دم... إنّه مجرم، كتاباته قتلت مئات الأرواح البريئة مثلها مثل رصاص الديكتاتور...

كان وحيداً وأعزل، يضمّ أوراقه بقوّة بين يديه المرتجفتين وقد عجز تماماً عن السيطرة على إحساس بالنَّمَل شديد ومؤلم في وجهه.

وانبثق من قلب الليل، أو قلبه الغائص في العتمة، سؤالٌ ساخر: أتجرؤ وتنشر أوراقك القليلة الوحيدة التي تستحقّ النشر؟!

صديقة الانتظار

ما الذي يوقظها من عزّ النوم سوى هذا الإحساس الأصمّ الثقيل المؤكَّد: اليأس؟! أجل، اليأس. حاولت أن تغشّ نفسها وتبحث عن تعبير أخفّ وطأة، لكنّها أدركت هي الحقيقة تلك الليلةَ حين أفاقت في الرابعة فجراً واليأس متربِّصٌ بها كاشفٌ عن وجهه العريض بعينين رماديّتين مُطفأتين من دون بياض، وأنف عريض كالجدار، وفم عبارة عن شقّ من دون شفتين. أدركت أنّه لا مجال للالتباس، فهذا وجه اليأس.

تذكَّرت نصائح الطبيب النفسانيّ الذي لجأت إليه في الشهرين الأخيرين. منذ سنوات وهي تفكِّر باستشارة طبيب نفسانيّ، لكنّها كانت تخشى نظرة الناس، سيقولون عنها مجنونة. كانت في سرِّها تصرخ بهم: النفس تتعب كالجسد، بل أكثر منه، وتحتاج إلى من يُريحُها. حسمت أمرها أخيراً باستشارة طبيب نفسانيّ لسبب وحيد كون عيادة هذا الطبيب العائد حديثاً من ألمانيا تقع في مبنى ضخم، كلّ طابق فيه يزيد على عشرة مكاتب. وكما يقولون «الطاسة ضايعة»، تعبير عاميّ تحبّه، يعني أن لا أحد يعرف أيّ مكتب تقصد. وما طمأنها أكثر، محلّ مزيِّن شعر لسيِّدات في

طابق عيادة الدكتور النفسانيّ. كانت تتعمّد أن يكون شعرها مُسرَّحاً بعناية حين تقصد الطبيب، ولا تنسى أن تضع في حقيبتها بخّاخ تثبيت الشعر الذي يُذيع أنّها كانت لدى مزيّن الشعر، فيما لو صادفت أحداً من أقاربها أو أصحابها. كانت بعد كلِّ جلسة لدى الطبيب النفسانيّ تتعمَّد أن تدخل الحمّام، تبخّ بكثافة رذاذ مثبت الشعر على رأسها، ثمّ تخرج من عيادته بثقة.

الرابعة فجراً، سكون الخلق الأوَّل. لم تبدأ بعدُ العمليّات اللاَّمُجدية للبشر، عالم الضجيج لم يستأنف دوّامته. أعدَّت القهوة وهي تتذكَّر أنَّ وصيّة الطبيب النفسانيّ الأوَّل أن تمتنع عن القهوة كلّيّاً وكلّ أنواع المنبِّهات. سمح لها بعد إلحاح منها بأن تشرب فنجان قهوة وحيداً في الصباح، ووصف لها دواءً للقلق، تبتلع منه حبّة كلّ مساء. ولكن ولعها بالقهوة جعلها تتمرَّد على نصائح الطبيب. قالت له:

- القهوة صديقة قديمة.

ضحك متسائلاً: صديقة؟

قالت: طبعاً، أليست القهوة مشروب الأحزان، ومحطّات السفر، ولقاء الأصدقاء. إنّها صديقة الانتظار.

أعجبه تعبيرها الأخير، «القهوة صديقة الانتظار». حكى لها أنّه حين كان يدرس في برلين، أحبَّ امرأة تسكن في ضاحية بعيدة، وكان يشرب عدّة فناجين من القهوة وهو ينتظرها.

أقنعها بأنَّ أهمَّ خطّة لنجاح علاج أرقها المزمن، هو الامتناع عن المنبِّهات، وحاول تعزيتها بأن تشرب نوعاً مستورَداً من القهوة

من دون كافئين، لكنّها لم تستسغه. قالت له في الجلسة التالية: القهوة لا تقبل الغش. ما نصحتني به هو سراب القهوة.

ابتسم قائلاً: سنتعاون معاً لمحاربة أرقك المُزمن والشديد. لا أُريدك أن تسقطي ضحيّة إدمان المنوِّمات، يجب أن تلتزمي بخطّة للعلاج، أساسها ركيزتان: العلاج الرؤيويّ، والامتناع عن المُنبِّهات. الموضوع الأوّل مُهمّتي، والثاني مُهمّتكِ. أريد منكِ وعداً بالانقطاع عن المنبِّهات. وعدته، هي شاربة القهوة والضجر بامتياز. حكت له أنَّ صلب وظيفتها يعتمد على شرب القهوة، ذُهل حين قالت له إنَّ عدد فناجين القهوة يتجاوز السبعة في ساعات الصباح الأُولى.

سألها: أهذا معقول؟

قالت: يا دكتور، كيف سنقضي ثماني ساعات عمل من دون قهوة، خصوصاً أنَّ عملنا الفعليّ لا يتجاوز النصف ساعة.

أحرجته، لم يجب. قال طاوياً النقاش: المهمّ استبدلي القهوة بعصير طازج أو زهورات أو نعناع.

جلست ترشف القهوة وهي تتخيّل نظرة العتب في عينَي الطبيب الجميلتين. فكّرت: إنّه شابّ جميل حقّاً وممتلئ حماسة، لكنَّ حزناً عميقاً ينفلتُ من عينيه مباغتاً لكليهما وهو يتحدَّث إليها، تُرى ما سرُّ حزن هاتين العينين الجميلتين؟ فكّرت وهي ترشف قهوتها في أنّه ألهاها حقّاً عن المشكلة ولم يحلّها لها. أكثر من عشر جلسات، تستغرق كلّ جلسة نصف ساعة، يحدّثها عن العلاج الرؤيويّ.

بهرها حقّاً في الجلسات الأُولى إلى درجة أنّها ظلّت أيّاماً تحسُّ بنشوة لا تعرف مصدرها. ترجَّع صدى صوته في ذهنها: المهمّ أن نغيِّر نظرتنا إلى الواقع، فالراتب الحقير لن يزيد إذا اكتأبنا، والضجيج اللعين المنطلق من المذياع والتلفاز وزئير السيَّارات وآلات النجّار والحدَّاد، وأصواتُ الباعة المتجوِّلين الذين طوّروا طريقتهم في البيع باستخدام مُكبِّرات الصوت، كلّ هذا الجعير كما تسمِّيه، والذي يدمِّر الأعصاب ببطء، ما من سبيل للخلاص منه سوى بتعويد أنفسنا ألاّ نعتبره كارثة.

حتّى الضجر نفسه الذي يدفعها إلى البكاء من شدّة وطأته، والذي تغذّيه تفاهة الناس وانعدام النشاطات الثقافيّة في المدينة، وموت السينما والمسرح، يمكن التحايل عليه بخلق أهداف جديدة تغيِّر نظرتنا إلى الواقع.

تلاشت نشوة الجلسات الأُولى وحماستها لطاعة الطبيب. بدأت بذرة شكّ تنبتُ في روحها، إنّه يُلهيها ولا يُعالجها، هذا ما تحسّه. منذ سنوات وهي تعاني أرقاً ينهك أعصابها، تحسُّ بنعاس شديد، تنام ساعتين، لتستيقظ، كأنَّ أحداً لكزها في كتفها وأمرها بأن تقوم من فراشها. تنصاع إلى الصحو وتجلس في وحدة الليل وقد تماهت مع وحدتها تصغي إلى الصمت الذي تفتنها موسيقاه أكثر من كلّ موسيقى، تقلّب حياتها أمامها سنة بعد سنة، يا للمرارة! يا للحقيقة القاسية... تنبسط أمامها سنوات حياتها طويلة، تدرك كم أنَّ الألم طاغٍ ويترك وشماً بحجم الذاكرة، أمّا الفرح فليس سوى رشّات صغيرة من غبار رائحته الزكيّة، لكنّه سرعان ما يطير من دون أن يترك أثراً سوى صور باهتة في الذاكرة.

تذكّرت كم عانت مع والدها الذي أصابه الشلل بعد حادث سيّارة. سبع سنوات وهي تصحو على وجه أحبِّ إنسان إلى قلبها وقد كوّمه العجز كتلة من العذاب المتواصل. كان يُناديها لتهشّ ذبابة حطّت على وجهه لأنّه عاجز عن هذا الفعل. أنهكتها السنوات السبع. شلل والدها جعل روحها تنشلّ تماماً. فقدت قدرة توليد أيّ أمل، انصبّت على دراستها لتتفوّق في الجامعة وتغدو مهندسة بامتياز. لكنَّ الوظيفة براتبها الشحيح والبطالة غير المقنَّعة جعلتاها تهوي في هوّة يأس له طعم مختلف عن طعم يأسها بعد شلل والدها. ابتسمت وهي تتذكَّر قصّة حبِّها لشقيق صديقتها. هل أحبّته فعلاً أم أمرت نفسها بأن تحبَّه متعمّدة خلق شعور جميل في حياتها؟ تعاهدا على الزواج، سافر إلى السعوديّة ليعمل على أمل أن تلحقه، لكنّه سرعان ما سقط في الإغواء، وتزوَّج بأرملة ثريّة.

كانت ترفض الاستسلام لمطبّات اليأس. قوّة الشباب وحدها كانت تجعل كفّة الأمل ترجح. انتهت مرحلة الآلام الأولى، توفي الأب وطوت صفحة الحبيب الخائن وتعوّدت ذلّ الوظيفة. بدأت عهداً جديداً. تزوَّجت بشابٍ مناسب يملك شقّة ودخله يضمن لها ألاّ يجوعا يوماً، لكنّها لم تستطع الاستمرار معه، لأنّه كان موهوباً بعجن الساعات بالنَّكَد، لا يكفّ لحظة عن انتقادها. نبَّهها إلى أنَّ أفظع وسيلة لتعذيب إنسان لإنسان هي الكلام. لو كان طبخها مالحاً قليلاً لا يكفّ عن انتقادها أسبوعاً. يريدها أن تحبَّ ما يُحبُّه وتكره ما يكرهه. يفهم المرأة كظلٍّ لزوجها. يدهشه أنَّ للزوجة رأياً خاصّاً. إنّها يجب أن تكون السجّادة التي تطؤها الأسرة: الزوج والأولاد والأهل.

طلّقته غير آسفة، وبعدها ابتدأ الأرق. كانت تحسد الناس الذين يغفون بسرعة. لديها صديقة تشرب عدّة فناجين من القهوة ثمّ تغفو، لكم تغبطها. كانت لا تزال راغبة في شرب فنجان آخر من القهوة وهي تنصت إلى صمت الليل. نظرت إلى ساعتها: الرابعة والنصف صباحاً. قامت تحضّر القهوة مبتسمة بسخرية من صورة الطبيب المسكين. لم ينجح في علاجه الرؤيويّ معي، هذا ما قالته لنفسها وهي تلحق فكرة: أيّ سخف أن يقنعني بأن أغيّر نظرتي إلى الراتب الحقير. إنّه حقير لأنّه يُذلّني ويُشعرني بأنّني مسخة، فأيّ وهم هذا العلاج الرؤيويّ. قرّرت أنّها ستعترف له بسخف نظريّته وبأنّه يستحيل علاج المشكلة إن لم تُستأصل من جذورها، وإن لم يتغيّر الواقع جذريّاً. أمّا أن يطلب من فقير تعيس أن يغدو سعيداً وهو منقوع في فقره، فهذا دجل ووهم.

أجل، ستكون جلستَها الأخيرة معه، لكنّها تعترف في الواقع بأنّها ارتاحت إليه وأنّها كانت تنتظر موعد الجلسات معه بشغف. لعلّها في حاجة إلى صديق ينقذها من صقيع العلاقات البشريّة. كانت ترشف القهوة بتلذُّذ وعيناها ثابتتان من دون تركيز على نبتة في زاوية الصالون تتدلّى أغصانها الخضراء من الأصيص حتّى تلامس الأرض. أغصان جميلة مفصّصة عبارة عن أوراق متلاصقة في تدلّيها غنج ودلال، وفي نهاية الأوراق تتفتّح زهور أرجوانيّة. شعرت بأنّها تبصر هذه النبتة للمرّة الأُولى. انتبهت: إنَّ الرؤية تعني الإدراك. منذ سنوات وأُمّها تعتني بالنباتات وهي لا تُبالي بوجودها، بل كانت تسخر من أُمّها قائلة: النباتات ليست جميلة إلاّ وسط الطبيعة.

لكنَّ إحساسها بهذه النبتة مختلف تماماً في هذه اللَّحظة. وُلدت بينهما لغة خاصّة. انحناء الأغصان يذكِّرها بانحنائها تجاه زمنها الظالم. كلاهما ينحني ويرزح تحت ذلّ المعاناة، لكنَّ النبتة تتفتّح على زهور أُرجوانيّة ساحرة. إنّها على الرغم من ذلّ الزمان تبدع زهرات متفائلة.

ارتعش قلبها للحقيقة التي شعّت من روحها مُذيبة وجه اليأس الرماديّ الكئيب بومضة. إنّها هي كالنبتة محنيّة وذليلة أمام زمن عاهر، لكنّها تملك جمالها الخاصّ، وزهور روحها تفوق زهور النبتة جمالاً. أمكنها أن تسمع في صمت اللّيل الجليل صوت الطبيب يقول لها: برافو، أُهنِّئك، هذا هو العلاج الرؤيويّ، أن ننظر بعمق إلى حقيقة أنفسنا، وأن نكتشف الكنز فيها ولا نترك لصدأ الأيّام أن يتراكم فوقه، ولا ننكسر للظروف المحيطة مهما كانت قاسية.

دمعت عيناها تأثُّراً. قالت وهي ترمق صورته المرتسمة بوضوح في خيالها بامتنان وحنان وترشف آخر قطرة من قهوتها: لكنّ القهوة يا دكتور، أليست صديقة الانتظار؟ كان اللّون الأرجوانيّ للزهور يشعُّ دفئاً، يغزو قلبها مباشرةً. فكّرت: إنَّ نبتة صامتة ومُهملة منذ سنوات يمكن أن تكون صديقتها في معركة الحياة الصامتة المستمرّة.

مدينة وامرأة

وأنا أقترب من ضفاف بيروت أشعر بأنّه نبتت لي أجنحة، وأنّ مسامّ جسمي مشرّعة نوافذها للشمس. أشعر بأنّي تحرّرتُ من أعباء ثقيلة ترهقني. أكثر ما أحبّه التسكُّع في شوارع بيروت بلا هدف. تدهشني ألفتي مع الأمكنة كأنّني عشت فيها في زمنٍ مضى، أمشي على طول الفنار الحجريّ المحاذي للبحر مستمتعة بهمس الموج وصبر الصيّادين وبالتمارين الرياضيّة التي يقوم بها بعض الناس مستنشقين الهواء الرطب المُشْبَع بالحنان حتى آخر نقطة في رئاتهم.

في مدينتي، لديّ خشية دوماً من الزمن. أخاف من الساعات التي تضيع رغماً عنّي في الهباء من دون أن أفعل شيئاً. لماذا أفهمُ أنّ الحياة إنجاز؟! في بيروت أتبدّل، أُشفى من خوفي ألاّ أفعل شيئاً في يومي، أستسلم لفلسفة الكسل، ليس كسلاً بل تأمُّل شامل في الحياة والموت والحبّ والعلاقات البشريّة. . .

في بيروت أُشفى من وجع الفكر. أفكّر في أنّ بيروت أشبه بإسفنجة قادرة على امتصاص آلام زوّارها، وحين أُغادرها أُعاني وجع الانسلاخ. أودّع شوارعها ودكاكينها الجميلة ،الحميمة ـ وأنا

محشورة في التاكسي - بنظرات قلقة مليئة بالتيقّظ، أبتلع دموعاً حارقة في كلّ مرّة أقف فيها عند الحواجز الجمركيّة والأمنيّة. لماذا هذه الحواجز، لبنان وسوريا جسد واحد، أحبّ تخيّلهما كأمٍّ تحمل في أحشائها جنيناً، وفي كلّ مرّة عليّ بذل جهد للتكيّف مع خيبة أملي، بأن أعد نفسي بأنّي سأزور بيروت قريباً.

أقتحم أسوار بيروت بقلب عاشقة. عشقي لها بلا وجه، ليس في قلبه رجل. أُقارن بين عشق رجل وعشق مدينة، أُفضِّل أن أعشق مدينة، فعشق رجل متطلّب يُشعرني بأنّ عليّ تغيير جلدي، وغالباً ما ينتهي بخيبة مرّة. حبُّ الرّجل فرحه قصير وحزنه مديد، أمّا عشق المدينة فأشبه بحضن دافئ يحتضنني بالحنان نفسه كلّ مرّة؛ أشبه بعطر أتنفّسه كل لحظة فينعشني. أوّل شيء أفعله في بيروت أشتري الثالوث: «الحياة»، و«النهار»، و«السفير». أجلس في مقهى رصيف، أقلب الجرائد كأنّي أتذوّقها. أطلب القهوة مع الحليب والثلج وأتفرّج على المارّة بعينين ترشحان بالدمع؛ ليست دموع فرح ولا حزن، بل دموع الامتنان والشكر العميق لتلك المدينة التي تُشعرني بأنّني يمكن أن أترمّم بملاط الحرّيّة.

بيروت هي ليلى. هل يجوز تشبيه امرأة بمدينة؟ لم يخطر ذلك ببالي، لكن ليلى أوحت لي بهذا الشبه، لأنّها استثنائيّة، لأنّها لا تشبه إلاّ كلّ ما هو مدهش وعظيم ونادر. إنّها وردة نادرة ما عاد لها وجود، عرّفني بها صديق، قدّمني لها من دون أن يذكر شيئاً عنّي سوى: صديقة من اللاذقيّة. ومن اللحظات الأولى غمرتني بكرم حضورها. في حضورها لياقة مدهشة تملك حيويّة هائلة، في حركاتها ابتكار... كنتُ أتأمّلها مبهورة، شيء من إدهاش في

بساطتها العارية في عفويّتها غير المخرّبة. بساطتها نقيّة وذكيّة تُحدث فيّ صدمة منعشة كتلك التي يُحدثها رشف عصير برتقال طازج وبارد. كنتُ محتارةً في كلّ المرّات التي زرت فيها ليلى، عن السبب الذي يدفع غريبة في عمر والدتي، إلى أن تغرقني بحنانها وكرمها وضيافتها من دون أيّ مقابل، وقبل أن يسمح لها الزمن بمعرفتي؟

يُخيَّل إليَّ أنّ ليلى لم تعرف الضجر يوماً، لأنّها امرأة متجدّدة كلّ يوم. إنّ لها بهاء الشمس التي تشرق كلّ يوم من دون أن تشعرنا بالمَلَل. صرت أُلاحظ تصرّفات ليلى مع الأصحاب المتنوّعين الذين يزورونها. لم تكن تُرْهِقُ مَنْ حولها باهتمامها المباشر، بل تتظاهر بأنّها منشغلة بأشياء عديدة، بينما تجنّد كلّ طاقاتها لإسعاد مَنْ حولها. إنّها لا تصغي إلاّ إلى قلبها وفطرتها اللذين يقودانها في علاقتها مع البشر. كنتُ آتي إليها عارفةً سلفاً أنّي سأشفى من أحزاني اللطيفة وخيباتي المتعاظمة.

ليلى لا تقدّم لي مجرّد نبيذ فاخر وشوكولا لذيذة ومأكولات لذيذة، بل تقدّم لي قلبها المتواري وراء تلك الأشياء. فيها لغز يحيّرني. يبدو أنّها تتحقّق بإسعاد مَنْ حولها، بإغراقهم بسخاء عواطفها ومحبّتها. حياتها مأدبة تدعو إليها الآخرين وهي لا تطلب شيئاً لذاتها.

أشعرُ مع ليلى بأنّ للحياة مذاقاً حلواً. لا أملُّ من تخزين حيويّتها. أشعر كيف أنّ روحي اليابسة تصير ليّنة بعد ساعة من الحديث مع ليلى، وكم تنتابني رغبة في أن أبوح لها بأشياء وأشياء لم أكن أجرؤ على البوح بها حتى لنفسي. من أين تستقي تلك

الإنسانة ينابيع روحها التي لا تجفّ: ليلى هي بيروت.

ليلى مثل بيروت تحبّني، أنا الغريبة الهاربة من أوجاع الماضي، أنا اللطيفة كالحزن، العزلاء كالابن الضالّ، أجد مدينة وامرأة تقدّمان لي الشفاء.

زرتها ذات يوم، لم تكن في المنزل، أدهشني أنّ المكان بدا غريباً. غلّفتني الكآبة كوشاح. شعرتُ بأنّ كلّ شيء حولي يتفكّك ويتحلّل. روح ليلى تعطي المكان بهاءه، وفي بستان بيتها الجبليّ قطفنا معاً البندورة الصغيرة التي أحبّها. كانت تقدّم لي الحبّات الصغيرة الحمراء كأنّها تقدّم ورود قلبها. ليلى لم تترك بيروت طوال الحرب الأهليّة، أُصيبت بشظيّة وتهدّم بيتها لكنّها ظلّت صامدة كبيروت.

لماذا أرغبُ في البكاء بين يديها؟ ما سرّ تلك الرغبة الجامحة في أن أبوح لها بمكنونات نفسي، وكم من المرّات وأنا عائدة من رحلة تسكّعي الطويلة، أتوقّف عند مدخل بيت ليلى أنظر إلى فوق أحيي زهور شرفتها، وأهمّ بأن أصعد إليها لتضيفني حضورها الساحر، لكنّي أُتابع المسير وأنا أحسّ بانتعاش كأنّ مجالها المغناطيسي شملني وذوّب عزلتي.

أفكّر في ليلى وبيروت كأنّهما توأمان.

أفكّر ما الفرق بين ليلى وبيروت؟ ليلى صورة بيروت في قلبي.

المتاهة

كره أحدهما الآخر حتى أصابت كليهما أمراض جسديّة، فقد استعمرت الشقيقة رأسها ولم تتركها منذ كرهته. كانت تبقى ثلاثة أيّام طريحة الفراش لا تقدر على أن ترى نوراً أو تسمع ضجّة. غثيان مستمرّ وإقياءات وصداع فظيع لا يهدأ بأقوى المسكّنات. هو السبب. هذا ما تؤمن به. ولم يستطع الأطبّاء الجزم أو النفي بشأن السبب الحقيقي لصداعها العنيد، لكنّها كانت تصرّ وتؤكّد لهم أنّها لم تتناول حبّة مسكّنة واحدة قبل أن تتعرّف إليه.

أمّا هو فقد أصابته نُوَبٌ حادّة من خناق الصدر مذ عرفها، وكثيراً ما كان يستيقظ في الليل وهو يختنق ويسارع أطبّاء القلب إلى نجدته. ولطالما سألوه عن السوابق العائليّة لأمراض القلب في أُسرته وعن عاداته من تدخين وسهر وشرب، وطبيعة طعامه. كان يُجيب فاقد الصبر ويقول لهم: صدّقوني هي السبب، فقد كنتُ شاباً رياضيّاً، وحقّقتُ بطولات في كرة القدم حتى تعرّفت إليها وتزوّجنا، تلك المرأة النحس التي اختنق قلبي في سمومها وحقدها. وعلى الرغم من انفصالهما، فإنّ أحقادهما ظلّت تغلي، وظلّ كلٌّ منهما يشعر بأنّه مغبون ولم يثأر لكرامته المطعونة ولم

يُعِدْ اعتباره أمام نفسه على الأقلّ. ولأنّ المثقّفين يرفضون - بدافع الغرور ربما - اتباع الأساليب الرخيصة في الانتقام كالضرب والثرثرة وتشويه السمعة، فقد قصدا الطرائق العلميّة الحديثة لتحرّرهما من أحقادهما، لكنّ الطب النفسي وقف عاجزاً عن تفتيت صخور الحقد المتينة في أعماقهما.

وأخيراً توصَّلا بعد بحث مضن - كلٌّ بدوره - ومن دون أن يدري أحدهما بتحرّكات شريكه في الكره، توصّلا إلى طبيب صيني كان يُجري أبحاثاً على أدمغة القرود وعلى مركز الذاكرة بالذات، وقد تمكّن من اختراع دواء يؤثّر في مركز الذاكرة ويجعل القرد ينسى حوادث معيّنة إلى الأبد. وما إن سمعا بهذا الاختراع المذهل حتى اقتحما - كلٌّ بدوره - صومعة الطبيب الصيني ورجواه أن يقتل - بدوائه الرائع - من ذاكرتيهما ذلك الجزء الذي يحتلّه الآخر. كانت هي السبّاقة ورجت المخترع أن يقتل تلك الخلايا في دماغها التي تسجّل ذاكرتها معه، وأن يمحو صورته وصوته وحركاته. حاول الطبيب أن يُفهمها أنّه لم يتأكّد بعد من نتائج دوائه، وأنّ آثاراً جانبيّة خطيرة قد تنجم عن استعماله، وأنّه يُجرَّب على قرود وليس على بشر، وأنّ أيّ دواء يجب أن يخضع لتجارب سنوات طويلة قبل أن يطبَّق على الإنسان، لكنّها بكت بحرقة وأسهبت في شرح مأساتها وأكّدت للطبيب أنّ مصيرها الانتحار لو لم تتحرّر منه. ذُعر المخترع من منظرها ونصحها باستشارة أطبّاء نفسانيين.

ضحكت وهي تجيب: لقد استشرت أشهر الأطبّاء النفسانيّين وعجزوا عن إطفاء أحقادي على هذا الشيطان المُتنكّر بهيئة رجل.

لقد دمّرني. صدّقني أنّه سبب استقالتي من عملي، فقد بلغتُ بسببه حدّاً من الإرهاق جعلني عاجزة عن التركيز في أبسط الأمور.

طلب إليها الطبيب مهلة يومين ليفكّر، وليحضر دواءه للاستعمال الإنساني. قال إنّه سيجري بعض التعديلات على الدواء كي لا يسمّم جسمها، وحين احتجّت قائلة: ولِمَ الانتظار يومين؟ أجابها الطبيب فاقد الصبر: لأنّك إنسانة ولست قردة.

وفي مساء اليوم نفسه الذي غادرت فيه المعذَّبة صومعة الطبيب، اقتحم عزلته شاب منهك يكاد يختنق من الزلّة التنفّسيّة، وزرقة شديدة تصبغ شفتيه وأظافره.

قال له: أنقذني أرجوك. سمعتُ أنّك تقتل أجزاء من الذاكرة. حرّرني من تلك الساحرة المجرمة. وحين همّ الطبيب بأن يطلب الإسعاف، أسرع الشاب يقول له: لا تطلب الإسعاف، لقد عجز الأطبّاء عن مداواتي فمرضي سببه تلك المجرمة. وتجمّد الطبيب يتأمّله برعب وهو يشهق طالباً الهواء، والهواء لا يبلغ قصباته المتشنّجة بالحقد. أعطاه إبرة مهدّئة وأسرع يبحث في صومعته عن أسطوانة أكسجين. لكنّ الأسطوانة كانت فارغة للأسف، وبعد ساعة ارتاح الرجل، وقد أخذ يشرح للطبيب مأساة مرضه الذي عجز الطب العادي والنفسي عن شفائه منه، وفجأة انتفض الطبيب وسأل الشاب: هي - المجرمة - هل تشكو من مرض ما؟ ردّ الشاب: المجرمة تدّعي أنّي سبّبتُ لها الشقيقة.

خفق قلب الطبيب وارتجف فزعاً وقال: وما سبب أحقادكما، انفصلا وابدآ حياة جديدة.

ردّ الشاب: نحن منفصلان منذ سنوات، لكنّ الحقد ينهشنا من دون رحمة. لقد دمّرتني وشوّهت صورتي أمام الناس، وكانت السبب في طردي من نادي كرة القدم. وتململ الشاب فاقداً الصبر: ولماذا نخوض في الأسباب، وماذا يفيد أن أحكي لك كل خلافاتنا. ستعاودني النوبة صدّقني. ما يهمّني الآن ـ وانهمرت دموعه ـ أن أقتلها، أقصد أن أنساها. أرجوك أن تقتل خلايا ذاكرتي التي تخصّها، أرجوك.

يا لمنظره وهو يبكي. إنَّ مشهد رجل يبكي بحرقة يؤثّر بشدّة. وعده الطبيب بأن يعمل جهده وأن يراجعه بعد ثلاثة أيّام. حارَ الطبيب الصيني كيف يتصرّف، لكن حبّ المغامرة ومغريات تطبيق اكتشافه جعلته يجد مئات الحجج ليبرّر لنفسه تطبيق الاختراع الجديد على ضحايا حقد لا يشفى إلاّ بقتل خلايا معيّنة في الذاكرة. فليجرّب، ووجد نفسه يضحك حتى دمعت عيناه وهو يتساءل: ماذا لو التقيا عندي؟

حضرت بعد يومين الشابّة مبكرة ساعتين عن موعدها. كانت ضحيّة نوبة شقيقة قاسية.

قالت للطبيب: آه، أتمنّى لو تنفكّ دروز جمجمتي ويطير دماغي من خلالها. وارتمت على سرير الاختبار منهكة وقد أغمضت عينيها هرباً من النور على الرغم من أنّ الضوء كان خافتاً.

عرف الطبيب من منظرها اليائس أنّ كلّ محاولاته ستبوء بالفشل في إقناعها بالعدول عن تجريب الدواء. قال لها: حسناً، سأسألك بعض الأسئلة، فأجيبيني عنها قَدَر الإمكان وبلا انفعال.

قالت: أرجوك، أعطني الدواء، وأرِحْني من عذابات لا تُطاق.

ردّ مؤكّداً: اطمئنّي، سأعطيك الدواء، لكنّي أحتاج إلى بعض المعلومات البسيطة.

سألها: منذ متى تعرّفت إليه؟

ردّت وهي مغمضة العينين: منذ سبع سنوات. كنتُ أحضر مباراة كرة قدم مع صديقة لي، ذهبت معها مجاملة فأنا لا أطيق الرياضة. ومن بين آلاف المتفرّجين التقت عيوننا، التقط نظرتي والتقطت نظرته، وتوهّمنا أنّه الحبّ.

سألها الطبيب: هل كان لاعباً؟

- أجل، كان لاعباً مشهوراً.

سأل الطبيب بصوتٍ رخيم: ألم يكن حبّاً إذاً؟

ردّت بعصبيّة والشقيقة تجلدها كلّ لحظة: لا، كان كُرهاً.

- وما الذي جذبك نحوه؟

ضحكت بسخرية: عيناه السوداوان اللامعتان. لقد احتواني بنظرته وأشعرني بأنّه لا يرى سواي من بين آلاف المتفرّجين. لم أكن أعلم أنّ عينيه هما عينا الشيطان وأنّ ذلك اللمعان فيهما هو لمعان الشرّ.

- حسناً اهدئي، لا تنفعلي أرجوك.

- أرجوك يا دكتور، الغثيان يشتدّ، أكاد أتمزّق من الألم.

- حسناً، حسناً، أَدْخِلِي رأسك الآن في هذا الجهاز.

تأمّلت جهازاً ضخماً بحجم تلفزيون كبير فيه فجوة تتسع لرأس كبير.

تساءلت بدهشة: ما هذا؟

شرحَ لها الطبيب أنّ هذا الجهاز يبيّن له أجزاء الدماغ بالتفصيل، مكبّرة مئات المرّات، وأنّه تمكّن من التوصّل إلى مناطق الذاكرة وتحديد خلاياها وقتل بعضها، وبذلك يمحو ذكريات معيّنة إلى الأبد.

أدخلت رأسها في الجهاز برغم أنّ ذعراً كان يُضاف إلى صداعها. وبعد أقلّ من ربع ساعة طلب إليها الطبيب أن تُخرج رأسها من الجهاز، فأخرجته، ولم تتمالك نفسها أن صرخت من الفرح:

ـ دكتور، لقد اختفى الصداع!

سألها الطبيب بقلق: ولاعب كرة القدم، هل يزعجك، هل...

تحوّل وجهها إلى علامة تعجّب وهي تقاطعه قائلة: عمّن تتحدّث يا دكتور؟

ضحك الطبيب وهو يحسّ بنشوة اختراعه وقال لها: حسناً، لقد شُفيت من الشقيقة ومن أحقادك. لا تنسي أن تزوريني كل شهر مرّة لأطمئنّ على صحّتك، ولأراقب آثار الدواء عليك، ولا داعي لأذكّرك بأن تحتفظي بسرِّيّة الموضوع.

ردّت بسرور: بالتأكيد يا أعظم مخترع في الدنيا.

محته نهائيّاً من ذاكرتها، وعادت تمارس حياتها منطلقة

ناجحة. اختفى الصداع وانهزمت الشقيقة.

جاء دور الشاب في اليوم التالي. تمدّد على سرير الاختبار نفسه، كان مزرقاً يطلب الهواء.

صرخ مستنجداً: أرجوك يا دكتور أسرع، ماذا تنتظر!

ردَّ الطبيب بهدوء: حسناً لا تتسرّع، ستشفى، عليك أن تجيب بدقّة عن بعض أسئلتي.

قال وهو يجاهد في استنشاق الهواء: وما هي؟

ـ منذ متى تعرّفت بها، وكيف؟

ردّ: منذ سبع سنوات. كنتُ أشهر لاعب كرة قدم، ولأنّ القدر الغادر شاء أن ألتفت لأراها، تصوّر، أحسستُ أنّني أرى ملاكاً. كانت بيضاء رقيقة، عيناها خضراوان ساحرتان وشعرها أشقر ناعم طويل. هكذا كنتُ أتخيّل الملائكة. لم أكن أعرف أنّ الشيطان يتنكّر بهيئة امرأة جميلة. ولكن ارجع إلى كلّ الأديان يا دكتور، تُرَى، كيف كان الشيطان يتخذ شكل امرأة فاتنة. لقد دمّرتني، كانت السبب في طردي من الفريق وفي إدماني الكحول... أرجوك يا دكتور اشفني. أحسّ أنّي أختنق.

طلب إليه الطبيب أن يُدخل رأسه في الجهاز وشرح له آليّة التأثير، كما شرح البارحة لشريكته في الحقد. وبعد أقلّ من ربع ساعة أخرج الشاب رأسه من الجهاز. كانت شفتاه ورديّتين وصدره يتنفّس بانتظام وهدوء، وعلامات السعادة واضحة على محيّاه.

سأله الطبيب: كيف تشعر؟

ردَّ: لقد شفيت من خناق الصدر، أحسّ أنّني ممتاز.

سأل الطبيب بقلق: وتلك المرأة الأشبه بالملاك، صاحبة العينين الخضراوين والشعر الأشقر.

حملق الشاب إلى الطبيب وسأل دهشاً: أيّ امرأة يا دكتور؟

أطرق الطبيب مدارياً ابتسامة النصر. ودّع الشاب وهو يذكّره بضرورة زيارته كلّ شهر، وبأهمّيّة الاحتفاظ بسرّيّة الاختراع.

تتابعت الأشهر بسلاسة وصفاء كسماء لا تشبها غيمة. انساب الزمن منبسطاً سهلاً ربيعيّاً أبديّاً، عاشه كلٌّ منهما، قتلته وقتلها بطريقة حضاريّة وتحرّرا من سرطان الحقد.

بعد سنوات عاد نجمه يتألّق كأشهر لاعب كرة قدم، ورجعت هي إلى عملها نائبة للمدير العام في أضخم شركة لتصنيع أغذية الأطفال.

وذات يوم دعاها المدير إلى حضور المباراة الأولى التي سيشترك فيها ابنه البكر. خجلت من أن تقول له إنّها لا تطيق الرياضة، كان عليها أن تُجامل المدير.

وجلست في الصفوف الأماميّة إلى جانب المدير وزوجته، ومن بين آلاف الحضور، التقت عينان حضراوان كعيني ملاك بعينين سوداوين تشعّان بريقاً آسراً، وانطلقت شرارة تحوَّلت إلى ابتسامة... وشبه وعد!

ضمور

كان يشعر بأنّه حيوان! احتاج إلى شجاعة كي يعترف بهذا الشعور المهين الذي حاول إهماله طويلاً، لكنّه استسلم أخيراً لسلام الهزيمة. . . يا للسلام الهادئ الذي تعطيه إيّاه الهزيمة. منذ زمن لا يستطيع تقديره بدقّة، صار يشعر بأنّ وعيه لذاته وللعالم حوله يتضاءل، كأنّه يذوب وينجرف خارجه. يحسُّ بتحوّل تدريجي بأنّه يصبحُ شخصاً آخر، شخصاً منعزلاً عديم الإحساس. لم يفهم سبب التحوّلات النفسيّة العميقة في روحه، لكنّه خاف إلى حدّ الذعر أن يلاحظ أحد من المقرّبين إليه ما يحدث في كيانه من تغيّرات. توصّل إلى تلخيص حالته بعبارة واحدة: إنّه يدرك كل التغيّرات التي تحصل له، لكنّه عاجزٌ عن الفهم العميق لأسبابها. عليه أن يتعرّف إلى الشخص الجديد الذي صاره. شخصٌ تقمّصه ليس لديه مشاعر حقيقيّة؛ كيانٌ جافّ متصلّب ثقيل، يراقب العالم من حوله بعينين جامدتين لا تومضان بأيّ عاطفة. . . لم يفهم لماذا يشعر بأنّ جسده من الإسمنت حين يتحسّسه، ثم صار يغرق بإحساسه بالعجز عن التعبير عن حالته. في ما مضى، كانت تُسعده موهبة التعبير عن مشاعره وأفكاره. . . أمّا الآن فلغته تتقلّص، حتى

صارت تنتابه نُوَبُ ذعر من أن ينسى اللغة تماماً ويغدو أبكم!

لم يكن يوماً مرتاحاً في عمله، فالتذمّر من الأشياء نفسها مستمرّ: ساعات الدوام الطويلة التي تتمجّد فيها البطالة، وتكون الثرثرة الجوفاء سيّدة الموقف. المواضيع الأبديّة نفسها التي تثير الغثيان في نفسه: شحّ الراتب، غلاء المعيشة، متاعب المُراهقة... البطالة هي سرطان الروح... لكنّه كان يجدُ نوعاً من عزاء ومتعة في العمل، يعود بعده إلى البيت مستعذباً طعمَ الراحة، وسعيداً بالدفء الأُسري مع زوجته وأولاده الثلاثة. لكن وضعه الجديد لم يعد مقبولاً، فما إن يدخل غرفة عمله التي يتشارك بها مع ثلاثة من زملائه، حتى يشعر بأنَّ روحه تزهق، ويتشنّج جسده بالرفض، ويحسُّ بأنّ كلَّ أعصابه مشدودة كوتر على وشك الانقطاع.

لديه رغبة مُبهمة في أن يحطّم كلّ شيء، حتى نفسه. ينظر إلى العالم حوله فلا يرى إلاّ الخراب. يريد أن يتحرّر من شيء طاغ، يريد ابتلاعه وهو يقاوم. يفشل في إقناع نفسه بأنّ كلَّ شيء على ما يُرام حين يشرب عدّة كؤوس من الشاي والقهوة لتساعده على تمرير ساعات الدوام الطويلة.

يعود إلى البيت مُنشداً راحةً حقيقيّة، لكنَّ زوجته تسرع في إحباطه. تشكو إليه الأولاد، تقول بصوتها المتباكي: ياه، كم تغيّروا، ما عادوا يحترمون الكبير؟

كانت مؤمنة إيماناً راسخاً بأنّها أمٌّ رائعة وزوجة متفانية، وكانت أُسرتها مركز حياتها، فهي لا تشعر بالخارج إلاّ نادراً. أولاده الثلاثة يرغبون في الهجرة، يُحسّهم شخصاً واحداً، ليس

لأنّ الفرق بين أعمارهم قليل، بل لأنّ لهم الرؤية نفسها للحياة... يتقاسمون الغضب نفسه والإحباط نفسه. ثلاثة شبّان جامعيين أضناهم البحث عن وظيفة وعمل... فقدوا القدرة على الكلام الهادىء، فبعد دقائق من كلامهم، يتحوّل حدبثهم إلى صراخ قهر... يشعر بكلماتهم أشبه بلطمات لا مفرّ منها، عارفاً أنّها تترك في روحه جروحاً نازفة.

حين يُصغي إلى الأولاد يشعر طوال الوقت بأنّه أحمق، وكم يغيظه هذا الشعور، بل صار يتهم نفسه بأنّه يشعر دوماً بالشعور الخطأ! ثمّ أدهشه أنّه بدأ يفقد قدرته على أبسط حوار، وصارت الكلمات تخونه وتتبدّد، بل أحسّ أنّ مخزون ذاكرته من العبارات والكلمات يتضاءل مع الوقت، حتى سَقَط في رُهاب البكم.

ما الإنسان من دون لغة؟! ألا يُعرَّف بأنّه حيوان ناطق، يستمع إلى زوجته يحاول أن يحرّضها على مزيد من الكلام بصمته وتظاهره بالإصغاء. لم تكن لباقة منه أنّه يصغي إليها، بل لأنّه عاجز عن قول أيّ شيء!

حين يتناول طعامه يشعر تماماً بأنّه حيوان، يأكل لقماً كبيرة من دون شهيّة وبالآليّة نفسها التي يلتهم بها الحيوان طعامه.

لم تعدْ الحياة لطيفة، بل تحوّلت إلى كيان ثقيل يطبق على خنّاقه. ابنه البكر سيسافر في البحر، دفع رشوة لأحد التجّار كي يؤمّن له عملاً في باخرة... منذ سنتين وهو يتفرّج بانهزام على ابنه كيف فقد حيويّته ومرحه، وتحوّل إلى كيان مشتعل بالغضب والقهر، يصرخ بوحشيّة: ليس في جيبي ليرة واحدة.

لم يكن يتمنّى لابنه حياة التجارة، لكنّه عجز عن تقديم البديل، ووجد نفسه يرافق الشاب المتألِّم من دائرة إلى دائرة لينجز الأوراق المطلوبة لسفره.

وكم صُعِق حين قصد المشفى الحكوميّ من أجل تحضير الشهادة الصحِّيّة، حين رأى طابوراً من الشبّان ينتظرون بنفاد صبر لإنجاز الأوراق المطلوبة لسفرهم. تخيَّلهم يلقون بأنفسهم في بحر المجهول...

تفرّج على ابنه البِكْر يحزم حقيبته ويغادر، وهو جالسٌ في مكانه كالمشلول، لا يملك سوى أن يتمنّى له التوفيق. بينما قلبه يصرخ متألِّماً كحيوان في فخ.

أعماقه مخرَّبة، ونار روحه تخبو. هل صار إنساناً فاقد الروح!

يحاول أحياناً أن يُشعل شيئاً من حماسة في نفسه، فيلجأ إلى الذكريات الحلوة الدافئة، تحديداً صورَ طفولة أولاده، لكن حتّى تلك الذكريات تبدو مجرَّد صور مُلقاة بإهمال في قبو روحه المظلم... ما العُمر؟! ماذا يعني أن يكبر الإنسان في العمر؟! تساؤلات تنبع من فراغ روحه، العمر هزيمة وضمور...

مات إحساسه بزوجته كلِّيّاً، وبالجنس اللطيف عامّة. كم حرَّكت فيه المرأة مشاعر وشهوات... فكيف انطفأت شهوته للمرأة!

مات إحساسه بزوجته. غريبة عنه تماماً. فلم يعد يرغب في أن يبادلها أيَّ حديث، ولا يحسُّ بحاجة إلى أُنس رفقتها... هي

ذاتها تبدَّلت، أصابها نوع من الهياج مع العمر، فلم تعد قادرة على الجلوس وحدها لحظة! تحتاج دوماً إلى أحد يصغي إلى ثرثرتها.

صار لها ولع غير عاديّ بأشياء تتعلَّق بها بشغف، كالمسلسلات المكسيكيّة وتدخين الأركيلة! كان يتأمَّل الإنسانة الجديدة التي صارتها! امرأة بدينة، ليس فيها ذرّة من إغراء وجاذبيّة، مسمَّرة أمام شاشة التلفاز، تنفث دخان الأركيلة الكثيف من فمها، وتملأ حياته ضباباً... كان يتخيَّل أنَّ الدخان سوف يخرج ذات يوم من كلِّ فتحات جسمها، فتملأه هذه الخيالات بضحك يرشح بألم لا يُطاق.

لكنّه ظلَّ محتفظاً بصداقتها الباهتة، المتوازنة ظاهريّاً بين قطبين: صمته أو بكمه كما يحلو له أن يعبِّر عن حالته... وثرثرتها التي لا تتوقّف إلاَّ لسبب خارجيٍّ قاهر.

غدا متعفِّفاً غير راغب في الجنس، لم يعد يشعر بأيّ رغبة جنسيّة. يحلو له أن يتخيَّل أنَّ جسده أشبه بغصن شجرة جافّ ومُلقى بعيداً، لكنّه في أوقاتٍ متباعدة يحسُّ بإثارة تحرِّضها فيه المطربات الصاعدات وهنَّ يتمايلن، ويتأوَّهن، ويصرخن من عذاب عدم الإشباع... يحرِّكن فيه غريزة قصيرة آنيّة، بل يحسُّ بالخجل كونه لا يستجيب لجهودهنَّ الجبَّارة لإثارة الرجال... حتّى تلك اللحظات من الإثارة القصيرة، يفضِّل أن يستمني على أن يضاجع زوجته. العادة السرِّيّة ستُعفيه من مسرحيّة النفاق الزوجيّ...

اللَّعنة على المطربات الصاعدات، وعلى الفضائيّات التي تروّجهنَّ... يبلِّله الخجل والقرف بعد تلك الإثارة الحيوانيّة... ويتأكَّد إحساسه بنفسه بأنّه حيوان!

أكثر ما آلمه ابنه الصغير. كم كان طفلاً سعيداً ورقيقاً. ياه، كيف تراكمت كلّ هذه القسوة في نفسه؟ هل يصدِّق حجج زوجته بأنَّ مشكلة صغيره الرئيسيّة أنّه صادَقَ شبّاناً أثرياء، أولاد حديثي النعمة، فعجز عن مجاراتهم في تصرُّفاتهم ومصروفهم، فامتلأت نفسه بالأحقاد... لكن ما يؤلمه أنَّ ابنه لم يعد يحترمه، بل يحلو له السخرية منه، ومن قيمه وأفكاره... ابنه ينسف لعالم الذي يعيش فيه. يتذكَّر وجهه الجميل ويتساءل كيف تجمَّعت كلّ هذه القسوة فيه، يصرخ: معك قرش تساوي قرشاً.

هذه هي المعادلة الوحيدة في هذه الدنيا.

هجَّ بدوره إلى السعوديّة، ولم يكن يتّصل بأهله ليطمئنهم على أحواله... كان عليه أن يذهب إلى البريد ينتظر دوره وسط حشد من الناس ليتّصل بابنه ويحاول تخزين صوته في روحه... يأتيه صوت الشاب بارداً حيادياً، متضجِّراً. لا شيء يجرحه مثل برودة صوت... يجد نفسه ينكمش شيئاً فشيئاً ويكبح لهفة الشوق في صوته... وحين تجرَّأ وطلب من ابنه أن يتّصل به من وقتٍ إلى آخر كي يطمئنَّ عليه... أجابه الأخير ساخراً: لن أُبدِّد المال من أجل سخافات.

ابنه الأوسط نجح في الهجرة إلى كندا... أولاده الثلاثة هجُّوا، وهو في مكانه يحاول أن يلملم شتات نفسه كي يشعر بشيءٍ من إنسانيّته... يا لقسوة الأولاد! أيلومهم أم يلوم زمناً مجرماً!!

يحاول أن يروِّح عن نفسه بالتسكُّع. يتسكَّع في شوارع مدينة تزداد قُبحاً واتِّساعاً وقذارة، يتذكَّر أولاده حين كانوا صغاراً،

سهرة استثنائية

يجب أن أعترف بأنّي لا أمتلك الشجاعة لأصونَ كرامتي. هم أيضاً ـ أصدقائي ـ لا يمتلكونها. أحياناً مجرَّد رؤيتهم تسبِّب لي ألماً، أعرفُ تماماً سببه، فهم مثلي. كلّنا فقدنا إحساسنا بقيمتنا الذاتيّة، وارتضينا صمت الذلِّ والخوف كي نحافظ على مجرَّد العيش، كي يعيش أولادنا ـ أملنا الوحيد ـ في بلدٍ لم يقدِّم لنا سوى بذور الخوف والذلِّ نأكلها كلّ يوم ونحن مندهشون كيف لا نتسمَّم؟!

كانت مجرَّد سهرة، كمئات السهرات اللّطيفة المواسية التي تجمعنا، لكنّها انتهت بطريقة كارثيّة ـ لم يتوقّعها أحد. لا أفهم أيّ شيطان تلبّسنا ذلك المساء، حين وجدنا أنفسنا نتبارى، ونتنافس في سرد ما شهدناه وسمعناه من سلوك السيِّد دال. مَن ابتدأ الحديث، وكيف تدفَّق الكلام بذلك الزخم والوجع. لكأنَّنا كنّا نحضّر لتلك الأُمسية منذ مدّة طويلة!

كنّا دزّينة من الجامعيّين الموظَّفين، يجمعنا انكسار أحلامنا، لكنّنا كنّا ننجح دوماً في خلق هامش من الأمل والفرح في حياتنا...

اسمي عــلاء

صار اسمه ابنَ القحبة، منذ فرار أُمِّه مع عشيقها! لم يتوقَّع علاء، الذي لم يكمل الثامنة من عمره، أنَّ الحياة ستجرحه باكراً، وأنّه سيستيقظ ذات صباح وقد خلا البيت من أحبِّ إنسان إلى قلبه: أُمّه، التي فرَّت مع رجل آخر تاركةً أربعة أطفال أكبرهم علاء لأب فقير مهنته عامل بناء، ويعاني مرضاً يجعل جلده سميكاً مُقرفاً كحراشف السمك: مرض اسمه الصَّدف.

تقبَّل علاء الزلزال الذي هزَّ حياته بكبرياء وشجاعة. كتم ألمه الكبير لغياب أمّه وصار عليه مواجهة نقمة والده وغضبه العاصف الذي صبّه على ابنه البكر، لأنّ له وجه والدته تماماً. يوقظه كلَّ صباح بلكزة من قدمه في خاصرته النحيلة صارخاً: قم يا ابن القحبة استيقظ. واللّه أنت مثل القحبة أمّك تنام كدبّ. هيّا يا حمار ستتأخّر عن عملك.

أخرجه والده من المدرسة منذ فرار والدته، وألحقه بالعمل في مقهى كبير متخصّص بتقديم كل أنواع الأركيلة. يعمل علاء في المقهى حتى ساعة متأخّرة من الليل، يُشعل الفحم للأراكيل، ويضع الجمرات على رأس الأركيلة ثم يسحب شهيقاً عميقاً

يعطونه أياديهم الصغيرة بثقة وطمأنينة. الآن راحة يده خاوية، ما عاد مصدر أمان وثقة لأحد.

التسكُّع هو المتعة الوحيدة المتبقِّية لديه والتي تُشعره قليلاً بإنسانيّته وبأنّه على صلة مع العالم. يمشي في أزقّة وشوارع وحدائق فخورة بالإهمال... يحاول أن يروِّض روحه على الحقيقة... مستسلماً لنُوَب من الغضب تتصارع مع نُوَب الحنان والمسامحة لأولاده.

زمن ابن كلب. أجبرهم على أن يصيروا قُساةً. الزمن نفسه الذي جعله يشعر بأنّه حيوان. كلُّ كيانه في دوَّامة، ولغته تتقلّص على نحوٍ يثير ذعره.

ذات مساء كان عائداً إلى بيته بعد رحلة تسكُّع طويلة، سمع مواءً موجعاً مُلِحّاً، تلفَّت باحثاً عن الصوت، رأى قطّة رثّة المنظر على نحوٍ مريع، وقد علقت رجلها وهُرِست تحت عجلة سيّارة. قرفص، وحدَّق في العينين المتوهِّجتين بالألم... حاول سحبها لكنّها أنَّت من الألم... أحسَّ أنّه عالق مثلها في شرك برغم أنَّ رجليه طليقتان...

تحوَّل منظر القطّة إلى كابوس يلاحقه، كما لو أنّها تُريه نفسه في مرآة الواقع. أخذ يركض هارباً من صوت موائها الأليم، أتاه يقين بأنّه يركض نحو نهايته.

حنجرته وبضيق في صدره، يدخل الحمّام الضيّق القذر، يتكوّم على نفسه كجنين، متخيّلاً أنّه جالس في حضن أُمّه، ويجهش ببكاء متقطّع، لكنّه أحياناً يعجز عن ذرف الدموع، فيُصدر من حنجرته أصواتاً مختنقة تنضح بالقهر...

لم يكن علاء جاهزاً لهذا القَدْر الهائل من الألم. يُحسّ أنّه مبلبلٌ دوماً، وعاجز عن التعامل مع تلك الحقيقة. يحاول أن يُفرغ ألمه وغضبه بالمشي السريع، يُحسّ أنّ خطواته التي تتسارع تُحرّره قليلاً من وطأة ألمه. يمشي طويلاً وهو يلهث ودموعه تبلّل وجنتيه، يحلم حلماً وحيداً أنّها ستعود وسيغفر لها... بل صارت لحظة غفرانه لها هي عزاؤه الوحيد في أيّامه القاسية. كان يفكّر وهو يتنقّل بجسده الضئيل حاملاً سلّة الجمرات المتوهّجة كقلبه، هل يُعقل ألاّ يبقى شيء من أمّه؟ يرنو إلى الجمرات تلفح وجهه النحيل الشاحب بلهيبها ويتساءل بإحساس رقيق وقلب نقي: هل يُعقل ألاّ يبقى شيء من الماما؟ ويعصف أحياناً به الشوق إليها إلى درجة أنّه يخرج إلى الشارع، ويضيع في الزحام والضجيج، وهو يصرخ بصوتٍ يتبدّد كأحلامه «ماما، ماما»... ثمّ تعلّم مع الوقت أن يكبح شوقه ويحوّله إلى ابتسامات يوزّعها على الزبائن.

مرّ عامان من دون أن يراها أو يسمع عنها شيئاً. ذات يوم ألهب شوقه إليها كيانه الغضّ، فسأل والده: أين الماما، فكان الجواب صفعة مدوّية، تركت طنيناً في أذنه لأيّام.

لكن إحساس علاء بأنّه ينتظرها لم يخمد أبداً. نجح مع الوقت في استحضار شخصها وروحها، وأمكنه أن يتنشّق شذاها العطر، ورائحة صابون الخزامى التي تفوح من جسدها وتخدّره،

متلاحقاً، حتى يخرج الدخان كثيفاً من فمه، ثمّ يقدّم خرطوم الأركيلة للزبون، وقد يتلقّى بخشيشاً تافهاً، فيشكر الزبون من قلبه، ويتمنّى لو تزيد النقود في جيبه عساها تخفّف قليلاً من غضب والده وشتائمه التي تنهال عليه كلَّ يوم.

نجح علاء في أقلّ من شهر في جعل نفسه شخصاً لا يمكن الاستغناء عنه في أكبر مقهى لتقديم الأراكيل في المدينة. كان يحمل الشعّالة المتوهّجة بالجمرات بيد، وملقطاً معدنيّاً كبيراً باليد الأخرى، ويتسلّل بين الطاولات ملبّياً النداء الملحوح «نارة يا ولد»... أكثر ما يؤلمه أنّه لم يعد يسمع أحداً يُناديه باسمه، فهو في البيت ابن القحبة، وفي المقهى «نارة يا ولد». لكنّه كان من حين إلى آخر، يستسلم لأحلام يقظة عذبة ويغمض عينيه الدامعتين منصتاً إلى صوتٍ بعيد بعيد يعشقه، صوت أمّه تناديه: علاء، علاء...

لم ينتبه علاء إلى أنّه صار بعد ستّة أشهر من عمله يعاني نُوَب سعال حادّ، كسعال رجل عجوز عاش عمره مُدخّناً... ولم يفهم شعوره الخام بأنّ وجهه غريبٌ عنه، حين يطيل تأمّله في المرآة! تُرى، لِمَ يُحسّ أنّ وجهه غريب عنه، كما لو أنّه وجه طفل لا يعرفه... لم يفهم علاء أنّ حزناً عميقاً ومهيباً ارتشح في ملامح وجهه، ملامحه الحلوة التي هي ملامح وجه أمّه تماماً.

لم يردّ علاء أبداً على إهانات والده، وصفعاته المفاجئة من دون سبب. تظلّ شفتاه مطبقتين بقوّة كجرح. كان والده يخلّصه من كلّ نقوده ويترك له أجرة المواصلات فقط. لم يعرف علاء الذي زلزله غياب أُمّه كيف يتعامل مع جرحه. يُحسّ بألم فظيع في

نظرته مأساة روحه، وارتسمت علامات الانهيار على وجهه النحيل. وعلى الرغم من أنّ المسافة بينه وبينها خطوات، إلاّ أنّه أحسّ أنّ هوّة سحيقة تفصله عنها، وأنّ شيئاً قاهراً خارجاً عنه يشلّه شللاً ويمنعه من الركض نحوها... هل ناداها «ماما»، أم خُيّل إليه أنّه يُناديها. خنقته نوبة سعال عنيفة جعلته يترنّح، سعال جعله يترنّح ويضطر إلى وضع سلّة الجمرات جانباً. جحظت عيناه واحتقنتا، وهو يقاوم هذا السعال الوحشي الخشن... أصابه فزع حين انتهى سعاله بكومة من البصاق المُدمى، دم أحمر دافىء، أحسّه خارجاً من قلبه المتورّم بالحبِّ لأُمٍّ لم يبقَ منها شيء؛ لأمّ تتبدّد كدخان الأركيلة.

أحسّ بدوار، غامت الدنيا أمام عينيه. إشارة المرور خضراء... أحسّ بغثيان، فانتحى زاوية والتصق بالجدار، تقيّأ دماً، ونضح عرقٌ بارد من جسده. كانت شفتاه ترتعشان بقوّة، كما لو أنّهما تجاهدان لتنطقا كلمة «ماما»... لم ينتبه إلاّ وصراخٌ فظيعٌ ينقضّ على رأسه، ويد خشنة تهرس كتفه النحيل: ألم تسمع يا ولد... نارة، الزبائن يريدون نارة...

سلّة الجمرات إلى جانبه، ودّ لو يذوب في قلبها، يتدفّأ أو يحترق، لا فرق. ربّما يمكنه في قاع تلك الجمرات أن يشعر بحنان أمّه.

وتصيبه بنعاس لذيذ. . . يشعر بأنّ وجودها يحوم حوله كنسيم لطيف، إحساسه بها يجعل روحه تحلّق كعصفورٍ يغرّد سعيداً بالحياة، عارفاً أنّ أساسَ سعادته وجودَ أُمّ. . . تحتضنه.

تلاحقت نُوَب السعال عند علاء، إلى درجة يشعر بأنّه سيموت مختنقاً بالبلغم الأسود الذي يبصقه، وأحياناً تنتهي نُوَب سعاله بالإقياء، وتتركه كخرقة مبلّلة بالعرق. لم يبالِ والده بسعاله إلاّ حين أخذ يستيقظ من نومه منزعجاً من ابنه الذي يقلق راحة نومه. اشترى له دواءً وشراباً مُقشعاً، فتحسّن علاء قليلاً، لكن نُوَب سعاله لم تخمد، فأمره والده بأن ينام في المطبخ.

في ظلام المطبخ حيث يسمع دبيب الصراصير، يحسّ أنّ روحه منكمشة، لكنّه يحدّق في زاويتها، حيث كانت تقف تغسل الصحون، وهي تدندن بأغانٍ عاطفيّة حزينة. يفرد خياله صورها في فضاء المطبخ الضيّق المعتم، يمسح دموعه وهو يناديها: «ماما، ماما»، متذوّقاً نشوة اللّفظ، ويشعر كيف يشفّ الظلام الكثيف عن نور شاحب مزرقّ. . .

ذات مساء بارد، كان علاء يلوّح بقوّة بسلّة الجمرات عند الباب الخارجي للمقهى، شارداً بنظراته في سيل السيّارات الذي لا ينقطع، حين هوى قلبه فجأة. فقد رآها تجلس إلى جانب رجل في سيّارة أنيقة. . . إشارة المرور حمراء، وهي على بُعد خطوات منه. أحسّ بلحظة كيف يتحوّل حبّه لها إلى كهرباء تهزّ جسده، كهرباء تنطلق من جسده إلى جسدها، وخُيِّل إليه أنّه سمع صوتها، الذي اخترق سمعه كشرارة من نار ألهبت روحه.

كاد ينصاع لرغبة جامحة في أن يركض باتجاهها. تركّزت في

حاجتها إلى الحنان. أتُراها تعاني مرضاً حقيقيّاً اسمه نقص الحنان! كم من المرّات بكت متألِّمة من برودة العلاقات بين البشر، وتسأل نفسها بدهشة التساؤلات الأُولى للأطفال: ياه، أين الدفء بين الناس؟ لا تستطيع هناء العيش من دون دفء العاطفة، وتؤمن بأنّه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بالحبِّ... تشعرُ وهي تتحدَّث إلى أصدقائها، كيف أنَّ روحها تتكثّف في عينيها اللّتين تتّسعان وترشفان الوجه الذي ترنو إليه، منشدةً التعاطف واللّهفة والمحبّة والحنان. لكنّها لا ترى صدىً لمشاعرها، لا ترى سوى عيون شاردة متعبة، تنظر إليها كأنّها تتجاوزها، ولا تنقل لها أيّ تعاطف أو دفء... ياه، ما أبشع الفتور. الموت ليس بارداً بل فاتر، هذا ما اكتشفته هناء، وهي تصارع لتوليد عواطف من نفوس أصابها القحط.

كم من المرّات حاولت جاهدةً تجاهل حاجتها إلى التعاطف والودِّ الإنسانيّين، تحدِّث نفسها بقسوة وعتاب: عيب يا امرأة، حاجتك إلى الناس مُخجلة. عيب أن تلهثي إلى هذه الدرجة اللَّحوحة والمُهينة وراء سراب تسمِّينه دفء العلاقات البشريّة...

تتظاهر هناء بالاقتناع وتذعن لصوت العقل. تجلس في زاويتها تقرأ وتحلم وتتابع بملل برامج الفضائيّات التي تصيبها كلَّ مرّة بالبلبلة... تقاوم لأيّام لكنّها تنهزم، فتقوم إلى جهاز الهاتف، تلمسه بحنان، وتعاتبه لِمَ يلتزم الصمت إلى هذا الحدّ؟ ترفع السمّاعة، وتدير رقم إحدى الصديقات بقلب يخفق بحبٍّ لا شكل له، فيأتيها الصوت البعيد الحياديّ. تتكثّف أحاسيس هناء في أُذنيها، تحلِّل نبرة الصوت الذي تسمعه. تشعر بأنّها تندفّأ بصوت.

صوتٌ يضيء

لم يخطر ببال هناء أنَّ تصرُّفاتها صارت لامنطقيّة وغريبة، ولم تنتبه إلى أنّها كلَّما تقدَّمت في العمر ازدادت حاجتها إلى العاطفة. منذ سنوات انحرف سلوكها انحرافاً مُهيناً لشخصها كمدرِّسة متقاعدة يشهد لها الجميع بالتفوُّق والسمعة الطيِّبة ورجاحة العقل، ولم يبدُ عليها أنّها تعرف تماماً ما يعتمل في داخلها ويدفعها إلى تصرُّفاتها البعيدة عن المنطق والكرامة. صارت تتّصل بصديقاتها وأقاربها وتتحدَّث إليهم بلهجة منكسرة حزينة. كانت تجد لذّة في إيهامهم أنّها تُعاني مرضاً خطيراً، لم يشخِّصه الأطبّاء بدقّة بعد، لكنّهم يؤكِّدون أنّه مرض خطير، فتنهال عليها الأسئلة الفضوليّة المهتمّة فتنتشي هناء من دفء الأصوات وتعاطفها معها، وتجد نفسها منساقة إلى الاستفاضة في وصف أعراض مرضها الخطير، وصفاً دقيقاً، إلى درجة تشعر بأنّها هي ذاتها تكاد تصدِّق ما تحكيه، وتنطلي عليها كذبتها.

تشعرُ هناء التي قاربت عقدها السادس بأنّها تعيشُ في زاوية، منقطعة الاتّصال مع العالم حولها. تحاول إقناع نفسها بأنّها صامدة وقويّة، لكنّها تعرف كم أنَّ أعماقها هشّة، وتخجل من نفسها لشدّة

خيالها، كي تلهو بمناقشات لا نهاية لها مع الأصدقاء... ما يهمُّها هو مُجرَّد استمرار الحديث، أن تستدفئ بصوتٍ إنسانيٍّ يُشعرها بالشراكة.

أحياناً، تشعر كم أنّها ضعيفة وذليلة في حاجتها العظيمة إلى الناس، فتقرِّر الاستغناء عنهم. تقضي أيّاماً ترهف سمعها إلى دويِّ الصمت، فللصمت صدى مُهين. ترفع سمّاعة الهاتف مراراً في اليوم لتتأكَّد من أنَّ الطنين موجود، وتفتح باب البيت وتجرِّب جرس الباب. لا يوجد أيّ عطل عندها... العطل عندهم، هؤلاء الأصدقاء الذين تحجَّرت قلوبهم مع الزمن. لكنّ قلب هناء رفض أن يتحجَّر... تتكوَّم قرب جهاز الهاتف تحدِّق فيه بعينين دامعتين معاتبتين، وترفع السمّاعة بكلِّ شجاعة قلبها المتورِّم بالحبّ طالبة صوتاً إنسانيّاً. تطلب أحياناً أرقاماً كيفما اتفق، وتسأل عن أشخاص وهميِّين، وتعتذر عن الخطأ، لكنّها تكون قد خزّنت، في ظلمة روحها صوتاً، مبطّناً بدفءٍ إنسانيٍّ تفتقده بقوّة...

«الصمت مظلم الوجه، الصوت مضيء الوجه»، هذا ما تُحدِّث به نفسها وهي تقف على شرفة وحدتها ترنو إلى الناس في الشارع، تتلصَّص عليهم وتدقّق في ملامح وجههم. لكن أكثر ما يهمّها اختزان أصواتهم، الصوت يُدفئ، يتسلَّل إلى أعماقها الموحشة المعتمة التي تحتاج إلى دفء صوت إنسانيّ... تمسح بظهر كفّها دمعة وجد وتؤكِّد لنفسها أنَّ الصوت يضيء.

تخشى أن تكون المكالمة قصيرة، فتقود دفّة الحديث، مستخدمة كلّ الحِيَل التي ينجدها بها خيالها لإطالة المكالمة أكثر ما يمكن. . . وصارت مع الأيّام تختلق أمراضاً، تعانيها، فليس أكثر من المرض يثير تعاطف الناس. تجد هناء لذّة كبيرة في مقدار التعاطف والاهتمام اللذين يثيرهما حديثها الكاذب لدى صديقاتها. . . تبتسم فرحة ودموع العرفان تطفح من عينيها، ولسان حالها يقول: ياه، ثمّة من يحبّني بعدُ ويتعاطف معي! تعرف أنَّ مجرَّد تبادل الحديث لذّة، أمّا التعاطف فيُشعرها بفتنة لا مثيل لها. . . تتتالى أحياناً اتّصالاتها في اليوم نفسه مع صديقات عدّة، تخترع لكلِّ واحدة مرضاً تعاني منه، وتتفنَّن في وصف أعراض الأمراض مستفيدة من مخزون ذاكرتها في متابعة برامج مثل الصحّة والحياة، وما شابهما. . . لم يخطر بخيالها يوماً أن تؤنِّب نفسها على كذبها لأنّها في الواقع لا تشعر بأنّها كاذبة! بل تحسُّ أنّها تغدو أفضل ممّا هي عليه حين تحصل على حنان الأصدقاء وعطفهم. . .

الأصدقاء! أين هم الأصدقاء في هذا الزمن؟ ابتلعهم غول اسمه التعب، لا تسمع صوتهم لأسابيع. الكلُّ يتعلَّل بأعباء الحياة وقسوتها، فتجد نفسها متسوِّلة عاطفةً مضطرّة إلى الكذب، وادّعاء أمراض خطيرة كي تكسب رشفة من عاطفة لا تستطيع العيش بدونها. . . بل صارت تتعجَّب من رغبتها الصادقة في مرض خطير، كي تضمن استمرار تعاطف المقرَّبين والأصدقاء. . .

لا شيء يفتن هناء أكثر من سحر الكلام. الكلام دواء ومتعة ما بعدها متعة. الكلام وحده يفتح نفقاً بين قلب وقلب، وبين روح وروح. . . لا تجد أيّ حرج أو خجل في اختلاق قصص من نسج

صرخ: لكنّك قبضت مبلغاً كبيراً يا نصّابة.

قاطعته غاضبة: اسكت، لن أسمح لك بإهانتي، واللّهِ لو لم تكن في بيتي لكنتُ طردتك. ألم تدفع للأطبّاء أضعافَ، ما دفعتَ لي، فماذا قدَّموا لك؟ هل شفوك من آلامك؟ هل سكّنوا أوجاعك؟ ألم تخبرني بنفسك بأنّك سافرتَ من مدينة إلى مدينة قاصداً أشهر الأطبّاء ولم تستفد، فلماذا تصبُّ غضبك عليَّ، ألأنّني امرأة بسيطة غير متعلّمة؟

همدت نيران غضبه فجأة، كأنَّ كيساً كبيراً من الرمل انسكب فوق ناره المستعرّة، وغمره شعور عميق باليأس وتحوّل يأسه إلى صحراء لانهائيّة.

ويبدو أنَّ أُمَّ نديم تأثّرت كثيراً من كلامه، فقالت بلهجة جافّة مضطربة: تفضّل سأُعيد إليك مالك، ولكن إيّاك أن تتصدني بعد الآن.

هزّه موقفها. تعجّب أن تكون امرأة مثلها تعيش من الدجل تتحسّس لكرامتها بهذه الطريقة. وجد نفسه يقول: لا، لا أريد شيئاً، وهمَّ بالانصراف.

لكنّها ألحّت. أحسَّ أنَّ صوتها يشدّه من كمّه ويجبره على التوقُّف.

قالت: لا، انتظر. مدَّت يدها إلى أعلى صدرها وسحبت كيساً أزرق منتفخاً وفتحته لتسحب منه الخمسمئة ليرة وتعيدها إليه، وهي تقول بلهجة متعالية: تفضّل.

أخذ ورقة النقود وهو يحسُّ أنَّ أُمَّ نديم تتفوَّق عليه. تذكّر

آلام الرجل الطويل قليلاً

فشلت كلُّ الطرائق العلميّة والوصفات الشعبيّة في تسكين آلامه المتنقّلة في جسده. حتّى حجاب أُمّ نديم الشهير وذو المفعول العجيب في شفاء الأمراض، عجز عن شفائه من آلامه. وطالما سخر من الأحجبة ومن الذين يلجأون إلى هذه الطرائق المضلّلة، ولكن آلامه الملحّة والعنيدة جعلته يفقد منطقه ومحاكمَته ودفعته يائساً بلا وعي إلى بيت أُمّ نديم لتحضر له -حجابها الشهير في شفاء الأمراض.

عاد إليها بعد أسبوعين يغلي من الغضب وتطايرت شتائمه من فمه حِمَماً في كلِّ اتّجاه مُغرقة أُمّ نديم بجثتها الهائلة وأثاث بيتها المتراصّ والفخم وقصاصات الأوراق والأعشاب والبخّور والروائح الغريبة التي تملأ بيتها. وتمكّنت أُمّ نديم أخيراً من الصراخ بصوتٍ طغى على صوته قائلة بانفعال:

ـ طوّل بالك، أنتَ قصدتني ورجوتني أن أصنع لك حجاباً لتسكين آلامك، وأنا لستُ كاملة ـ أستغفر اللّه ـ وقد يخيب مفعول الحجاب مرّة من المرّات، فهل أجرمتُ بحقِّك؟

بسعادة تلفح روحه كنسمة ربيعيّة تهبُّ في يومٍ جهنّميٍّ. كادت آلامه تختفي، لولا دخول زوجته تطلب منه أن يستبدل جرّة الغاز القديمة الفارغة بأخرى ممتلئة لتكمل الطبخ.

سألته: ماذا فعلتَ مع أُمّ نديم؟

ردّ باقتضاب غير راغب في إخبارها أنّها أعادت إليه نقوده وأنّه اكتشف أنّها امرأة ذات كرامة:

ـ لا شيء.

قالت: لقد قبضت هذه الدجّالة خمسمئة ليرة.

قال ببرود: الأطبّاء قبضوا أكثر بكثير.

ـ لكنّهم أطبّاء.

قال ساخراً: لكنّهم لم يشفوني.

ـ أتدري، سمعت عن رجل قُدراته خارقة، عاش سنوات في الهند واليابان ثمّ سافر إلى المكسيك وأميركا الجنوبيّة، ويُقال إنّه درس طويلاً أسباب الآلام وله طرائق حديثة في علاجها، فلِمَ لا تقصده؟ إنَّ شهرته عالميّة، والناس يقصدونه من كلِّ البلاد و. . .

قاطع زوجته. لم يكن راغباً في الحديث. نظرَ إليها ببرود، وبعد أن انتهى من تركيب جرّة الغاز سألها: متى يكون الغداء جاهزاً؟

قالت: بعد ربع ساعة.

عاد إلى سريره، تمدّد وأغمض عينيه. أحسَّ أنّه ينتظر حُكْم القَدَر في آلامه. استعادت أُذناه حديث زوجته وأكَّد لنفسه أنَّ للنساء

كيف نعتها منذ لحظات بـ «النصّابة»، وتمنّى لو يَعْتَذر إليها. لكنّه لم يستطع، ربّما لأنَّ إحساسه بعدم احترامها منعه أو أنّه اضطرب وارتبك وخاف أن يجرَّ الاعتذار إلى كلام وكلام هو بغنى عنه، وأقرَّ لنفسه وهو يسير تائهاً أنَّ الاعتذار بطولة حقيقيّة.

ابتدأت الآلام في قدميه تذلّه وتعلن انتصارها عليه. انتقل الألم إلى أسفل ظهره فكاد يتأوّه، لكنّه كبحَ نفسه وتساءل بيأس متمنّياً لو يتصالح مع آلامه أو يصل معها إلى هدنة موقّتة: إلى متى؟ وكيف لم تشفَ هذه الآلام على الرغم من أنّه راجع عيادات أشهر الأطبّاء وخضع لفحوص دقيقة وصور وتحليل. أحسَّ أنَّ جسده يُفكُّ قطعة قطعة، وتفحّص كلّ قطعة وحدها ثمَّ يُعاد تركيبه من جديد، لكنَّ الآلام المبهمة لم تشفَ. عجز الأطبَّاء وعجز السحر: آه، أيّتها الآلام لماذا تسحقينني بهذه الطريقة وتُفقدينني شيئاً فشيئاً إنسانيّتي؟

ما كاد ينهي تساؤلاته حتّى فاجأته صعقة ألم في رقبته أجبرت الآه على أن تنطلق من أعماق روحه.

وصل إلى بيته أخيراً، ودخل محنيّ الظهر منطوياً من الألم. تهالك فوق سريره ببذلته وحذائه. أغمض عينيه على دموع القهر وأخذت آلامه تتوارى. غريبة هذه الآلام، إنّها تخفّ بالاستلقاء ويحرّضها المشي، تُرى ما سرّها؟

اقترب منه صغيره ذو الأعوام الأربعة وسأله: بابا متى عدت؟

فتح عينيه الدامعتين ومدَّ له يده، فقفز الصغير فوق السرير وجلس على ظهره ثمَّ تمدَّد بقامته الصغيرة فوقه وقبّله. أحسَّ

العبقريّ سيعاين آلامه عن كثب وقد يُعفيه من وصفها.

أخذ قلبه يخفق متسارعاً كلّما اقترب موعده، وآمن بأنّ هذه الزيارة ستكون منعطفاً في حياته، وأنّها إن لم تشفه من آلامه فستقدّم له حلاً للغزها. تذكّر أنّه لم يحسّ بهذا الشعور أبداً قبل زيارته أشهر الأطبّاء.

أعلن المسؤول عن تنظيم المقابلات عن اسمه، قام تتقدّمه آلامه. اجتاز البهو الكبير وهو يحسُّ أنّه يتأبّط ذراع آلامه. وصل إلى الباب الكبير الذي يفصله عن الرجل العبقريّ، تركه المسؤول عن المقابلات لحظة ثمّ عاد إليه بعد دقائق وقال: السيِّد في انتظارك، تفضّل.

وقع نظره على الرجل العبقريّ قاهر الآلام، خاب أمله إذ رآه قصيراً نحيلاً يلبس قميصاً أزرق وبنطالاً بنّيّاً، لحيته مشذّبة خفيفة، وتدلّ التجاعيد حول عينيه أنّه تجاوز الخمسين، لكنّه اعترف بأنّ عينيه غريبتان، لا تشبهان عيون البشر. تُرى ما سرُّ عينيه؟ وإلى جانبه جلس المترجم، سأله عن اسمه وعمره وعمله، وإن كان متزوّجاً ولديه أولاد. أجاب بدقّة. تكلّم الرجل العبقريّ بصوت منخفض، فحدّثه المترجم أنّ عليه أن ينزع ثيابه ويُبقي بسرواله فقط. نزع ملابسه فنظر إليه الرجل ذو العينين المتوقّدتين بالمعرفة بتمعّن، وأخذ يتكلّم بصوته الخفيض. وجد المترجم يُسرع خارجاً من باب جانبيّ لم يلحظه ويعود بعد ثوانٍ حاملاً علبة كبيرة معدنيّة قدّمها للرجل الشهير. فتح الرجل العبقريّ العلبة بيديه النحيلتين وأخرج منها جهازاً مستطيل الشكل تملأ سطحه الأزرار، طلب إليه أن يتمدّد، ووضع الجهاز الغريب قربه وأخذ يفقس الأزرار زرّاً بعد زرّ.

قابليّة غريبة في تصديق كلِّ الخرافات. ألم تقنعه زوجته بزيارة أُمّ نديم وشرحت له كيف حملت صديقتها من حجاب أُمّ نديم بعد أن فشل الأطبّاء في معالجة عقمها؛ وكيف شفى حجاب أُمّ نديم زوج صديقتها من آلام الشقيقة.

دفن رأسه في الوسادة وهو يقول: آه من أُمّ نديم ومن الأطبّاء. يبدو أنّه غرق في النوم لأنّه تنبّه إلى صغيره يهزّه من كتفه ويقول: بابا، الغداء جاهز.

وجد نفسه يسأل زوجته على الغداء: أين يسكن ذلك الرجل الذي عاش في الشرق الأقصى، ودار العالم واكتشف طرائقَ لمعالجة الآلام المعنّدة؟

ردَّت زوجته بحماسة: لقد سمعتُ أنّه استقرَّ في المكسيك، لكنّه يتجوَّل في بلاد العالم كلِّها، وسيزور بلادنا بعد أيّام، وهناك لجنة لتنظيم المقابلات معه.

سيطر عليه حدس قويّ بأنّه سيجد حلاً لآلامه عند هذا الرجل، وعزم أن يلقاه ولو اضطرَّ إلى أن يلحقه إلى المكسيك. أهو اليأس الشديد يجعله يخلق آمالاً زائفة، واحداً تلو الآخر؟

لم يتمكَّن بالبساطة التي تخيَّلها من تأمين موعد مع الرجل الشهير، فقد أخبروه أنَّ المواعيد كلّها محجوزة منذ شهر، لكنّه بعد أن دفع مبلغاً كبيراً للجنة المنظِّمة للمقابلات مع الرجل الخارق، حدَّدوا له موعداً ودفع مبلغاً إضافيّاً ليكون موعده قريباً.

في يوم الموعد، أحسَّ كيانه مضطرباً وأنّه ينتظر نتيجة امتحان عسير. اشتدَّت عليه آلامه، لكنّه كان راضياً لأنَّ الرجل

استغرق اختراعه سنوات يقيس وزن هذه الضغوط النفسيّة والمساحة التي تتوزّع عليها من جسمك. وقد وجد الرجل العبقريّ بعد دراسة مستفيضة أنّ هذه الضغوط تتوزّع على مساحة هي مسقط الجسم على الأرض، وكلّما كان المسقط صغيراً كانت الضغوط كثيفة متركّزة في مساحة المسقط الصغير، وكلّما اتّسع المسقط ـ كما يحدث لو كنت مستلقياً ـ توزّعت الهموم، أقصد أوزان الهموم على مساحة المسقط الكبير. . . أوه، لعن اللّه الترجمة، واللّهِ لا أعرف لماذا تتعدّد اللغات في العالم؟ لا أعرف إذا كنتَ فهمتَ شيئاً. لذا ينصحك الرجل الخارق بألاّ تمشي على رجلين لأنَّ مسقطك على الأرض يكون أصغر ما يمكن وبالتالي ثقل همومك أعظميّاً وهذا يسبِّب لك الآلام الشديدة. بل يرى ـ وابتلع المترجم ريقه الجافّ ـ أن تمشي على أربع حتى يكون مسقطك على الأرض واسعاً وتتوزّع أوزان همومك على سطح واسع، فتخفّ آلامك كثيراً.

بدا المترجم مُضحكاً وهو يقول في النهاية: أنا آسف.

سأله وهو يحسّ بشعور عابث يعربد في نفسه: هل الرجل العبقريّ قال: أنا آسف، أم أنتَ تقولها؟

ابتسم المترجم وهو يقول: لا، لم يقل إنّه آسف، بل أنا من يتأسّف لأنّي لا يمكن أن أتخيّل أن يسير إنسان على أربع.

نظرَ الرجل مطوّلاً إلى الجهاز المستطيل المغطّى بالأزرار كالدمامل، ونقل نظره إلى الرجل العبقريّ فوجده يبتسم له وعيناه بئران من المعرفة والسرّ لا قرار لهما.

قام من مكانه ولبس ثيابه ووجد نفسه يركع ويحبو على أربع كطفل لم يتعلَّم المشي بعد.

بدا على الرجل المبدع الاهتمام البالغ وأخذ يتكلَّم، أخبره الترجمان أنَّ الرجل شخّص آلامه وعرف سببها، اختلج قلبه بالانفعال. اعترف بأنَّ حدسه لا يخيب أبداً.

أخذ الرجل الخارق يتكلَّم وهو يراقب ولا يفهم، لكنّه انتبه إلى أنّ الترجمان أخذ يبحلق في الرجل مذهولاً ,يفغر فاه وهو يقول هامساً: غير معقول!

أخذ يرتجف كعصفور يرتعش من البرد. تعلّقت عيناه بوجه الترجمان الذي أحسَّ بأنَّه سيغمى عليه، ولم يتمالك أن سأله فاقدَ الصبر: خير، ماذا قال؟

استعاد الترجمان هدوءه، وقال له:

ـ الأستاذ يقول إنَّ مرضك غريب، لكنّه ليس نادراً، وقد شخّص حالات عدّة حتّى الآن من هذا المرض الغريب، والآخذ بالازدياد، ويتوقّع أن يزداد هذا المرض كثيراً في هذا العصر.

ـ قاطعه متلهّفاً ليعرف اسم المرض: ما هو مرضي الذي شخصّه؟

ردَّ المترجم بتؤدة محاولاً تبسيط المعلومات قدر الإمكان:

ـ السيِّد صاحب نظريّة جديدة تقول إنَّ الضغوط النفسيّة قد تتحوَّل إلى أثقال أحياناً، أي يصير لها وزن. تخيّل مثلاً أنَّ ضغوطك النفسيّة تتحوَّل إلى أثقال حديد مثلاً بالمعنى الحرفيّ للكلمة، وأنّ هذه الضغوط تكون دوماً عموديّة. يقول السيِّد إنّها تشبه الضغط الجويّ. آه، كيف سأشرح لك. . . ببساطة أقول لكَ إنَّ وزن ضغوطك النفسيّة هو سبب آلامك. وإنَّ هذا الجهاز الذي

وللحال شعر كيف أخذت آلامه تتضاءل. ذُعِر الناس وهم يرونه يدبُّ وتساءلوا: ماذا فعل له الرجل العبقريّ؟!

أمّا هو فكان سعيداً لأنّه تخلَّص من معظم آلامه، وتخيّل أنّه من الأفضل لو يركّب سرجاً فوق ظهره لحمايته، وتخيّل البقّال واللحّام والخبّاز يضعون الأغراض في أكياس سرجه. ضحك من قلبه وهو يتخيَّل صغيره يقفز على ظهره. آه، سيتمكَّن من حمله أخيراً وهو يدبُّ بعد أن عجز عن حمل وحيده وهو منتصبٌ!

أزدادُ وهناً كلّما استعدتُ تلك الأحاديث، التي كانت تتراكم في روحي كذرّات من رصاص تخنقني بالتدريج. . . أظنّ الكلام ابتدأ بمجرَّد تلميح، أشبه بإشارة سرِّيّة أدَّت إلى افتتاح ستارة مسرح مُعتم في داخلنا، مسرح يختنق بصورٍ وذكرياتٍ تترك في روحنا نُدوباً لا تشفى. . . علّق أحد الأصدقاء على محمود الذي تمكّن من شراء سيّارة أخيراً - ليس من راتبه - بل من إرثٍ عائليّ، قال له: يا سلام يا محمود، ألف مبروك، شو هالوجاهة، واللّه تبدو مثل السيِّد دال وأنت تقود سيّارتك. . .

«السيِّد دال». وقع اسمه بيننا كرصاصة مباغتة. حلَّ صمتٌ قصير، خرقه ضحك محمود الذي وجد نفسه يتدفّق بحديث لم يتوقّعه، ولم يتوقّعه أحد، لكنّنا أدركنا بعد فترة قصيرة أنّنا كنّا ننتظر هذا اليوم. التعبير الأدقّ نحتاج إليه أكثر ممّا ننتظره. . . هل للكلام خاصيّة الشقاء، ربَّما. . . تحلّقت عيوننا حول محمود وهو يحكي. . .

كان محمود واحداً من أهمِّ مدراء المدارس في المدينة المُنتهَكة. تلقّى اتّصالاً هاتفيّاً ذات يوم من. . . إنَّ «السيِّد دال» يدعوه إلى مقابلته. جمّده الذعر، اتّصل بزوجته وأقربائه وأصدقائه، وأخبرهم أنَّ «السيِّد دال» استدعاه إلى مكتبه. . .

انتقل الذعر إلى الأهل والأصدقاء، وباشروا اتّصالاتهم مع الناس المدعومين، القادرين على التحدُّث مع «السيِّد دال»، وتكاثرت الاحتمالات: ماذا يريد «السيِّد دال» من محمود؟ هل يعقل أن يكون محمود قد أفلت عبارة، أوصلها الواشون إلى «السيِّد دال». . . تؤكِّد زوجته أنَّ هذا الاحتمال مستحيل، وأنَّ

زوجها حَذِرٌ إلى درجة مَرَضيّة. فحتّى حين يضمُّهما فراش الزوجيّة يمنعها من التحدُّث عما سمعته وعانته من قصص «السيِّد دال». يغضب ويشتم ويقول لزوجته: قلت لك مليون مرّة، لا أطيق هذا الحديث، فقد يكون للحيطان آذان.

اجتمع الأهل والأصدقاء، في منزل محمود، وتحوَّلت الدقائق إلى سياط تجلدهم من قلق الانتظار. لم تستطع النسوة كبت دموعهنّ، وبعد ثلاث ساعات من غياب محمود سقطت زوجته في نوبة عصبيّة، انهارت وأخذت تلطم وجهها وتشدّ شعرها، وهي تكزُّ على أسنانها وتتلوَّى من الألم قائلة: ضاع الرجل، ضاع الرجل... تذكَّرت زوج صديقتها الذي اختفى لمدّة عام كامل، ولم يعرف أحد أين هو؟ بل لم يجرؤ أحد حتّى على السؤال؟ وبعد عام من اختفائه ظهر فجأة، واستأنف حياته العاديّة، لكنّه لم يجرؤ على أن يتفوَّه بكلمة واحدة. أين كان طوال ذلك العام؟! زوجته تحلف بأولادها أنّه لم يقل لها شيئاً... وأنّها تكاد تجنّ من هذا الوضع.

حاول الأصدقاء طمأنة زوجة محمود، عارفين أنّهم مهما قالوا لن يخفِّفوا قلق الذعر الذي يحسُّونه، وأخيراً ظهر محمود معافى... لا يظهر أيّ أثرٍ لضربٍ أو تعذيب على جسده، تهلَّلت الوجوه، وعلت زغاريد الفرح بعودته سالماً... لكنّه صرخ غاضباً وأمرهم بالسكوت.

العيون تسأل أكثر من اللِّسان... ماذا يريد منك «السيِّد دال»؟ يا إلهي كدنا نموت من الخوف... انفجر محمود ضاحكاً، بينما خذلته عيناه، وفضحت أعماقه المنهارة من الخوف. كان

يضحك ضحكاً أشبه بالبكاء بينما دموعه تنهمر سخيّة على وجهه الشاحب.

ـ يريد «السيِّد دال» أن يُلحق ابنه بمدرستي.

ـ أهذا كلُّ ما في الأمر؟

ـ أجل، ويريدني أن أراقب ابنه المراهق جيِّداً، لأنّه يُتعبه ويسبِّب له المشاكل.

ـ وكيف ستراقبه، أنت المدير و...

تململ محمود: أفٍ، كفّوا عن الأسئلة الآن. أحسَّ محمود بالانكسار والخجل وقد هزمته دموعه: أتبكي يا رجل؟! يا للعار، مات والدك ولم تبكِ! عانيت آلاماً مبرحة سببها حصاة في الكلية ولم تبك؟! ماذا جرى لك يا رجل، حتّى تبكي كأُنثى ضعيفة؟!

لم يسأل أحد محمود لماذا بكى؟! ساد الصمت لدقائق، صمتٌ يعني أنَّ كلَّ شيء واضح من دون كلام، لكن في المساء احتفل الأصحاب بعودة محمود سليماً، غنُّوا ورقصوا وتبادلوا القُبُلات، وتجاهلوا بإصرار جرحاً نازفاً في قلوبهم؛ جرحاً يمكن رؤيته من مجرَّد نظرة... يكفي أن تتلاقى العيون لبرهة، حتّى تفضح النظرة تلك الأعماق المُهانة.

أهمل محمود واجباته كمدير، وصار عليه أن يركِّز جهده في مراقبة ابن «السيِّد دال» الشابّ في الخامسة عشرة من عمره. تنتظره كلّ يوم سيّارة شبح عند باب المدرسة والعديد من المرافقة ـ رجال عمالقة ـ يحملون مسدَّسات ورشّاشات يُرعبون بها الناس والطلاَّب... ابن «السيِّد دال» يحمل مسدَّساً كبيراً يعلِّقه في حزام

بنطاله. تشوَّش ذهن الطلاَّب، وما عاد بمقدورهم أن يفهموا الدروس، وانتابت بعضهم حالات من ضيق النَّفَس، اضطرَّ الأطبّاء إلى تشخيصها كحالات ربو... وكثيراً ما يحلو لابن «السيِّد دال» أن يُطلق الرصاص في باحة المدرسة، ويتفرَّج على الطلاَّب كيف يفرُّون مذعورين كالعصافير...

لم يعد بمقدور محمود أمام إلحاح أهل الطلاَّب، تجاهل هذا الوضع المزري. منذ التحاق ابن «السيِّد دال» في مدرسته، لم يعد باستطاعته النوم من دون منوِّم، ولم يعد يقرب زوجته! إذ إنَّ حالة من الوهن الشديد شلّت أعضاءه... يا للمصيبة، أيجرؤ ويتّصل بـ «السيِّد دال»، وماذا سيقول له... نصحته زوجته بأن يتّصل بزوجة «السيِّد دال»، قالت له: اسمع، الأُمّ تقدِّر هذا الوضع أكثر، لا يوجد أمّ في العالم ترضى أن يحمل ابنها المراهق مسدَّساً...

تطلّب اتّصال محمود بزوجة «السيِّد دال» أيّاماً من القلق المضني، أحسَّ أنّه سيخوض معركة مصيريّة يتقرَّر على نتيجتها مصيره ومصير أُسرته... حشد طاقاته بعد أن ابتلع مهدِّئاً واتّصل، وحين أتاه صوتها نزقاً ونافد الصبر، بلَّله عرق الندم، لكن لم يعد من مجال للتراجع.

سألت باحتقار واضح: ماذا تريد.

سعفته مرونته فقال إنّه يريد أوَّلاً أن يهنِّئها على ابنها الفذّ، ولا يستغرب أن يكون الولد عبقريّ، فوالده...

قاطعته بنزق: ماذا تريد؟

ـ سيِّدتي الفاضلة، الأمر في منتهى البساطة، وغايتي الأساسيّة

مصلحة ابنك، فأنا أراقبه بكلِّ حبٍّ وإخلاص...

زعقت: قل ماذا تريد يا حيوان...

حيوان... أيكون واهماً! أتقصده هو، أم لعلَّها تخاطب خادمها... أتقول له يا حيوان هو المدير الذي برع في الإدارة، ويحترمه كلّ الناس... بذل كلّ ما في وسعه كي يتجاهل الإهانة، التي انغرست في قلبه كطعنة خنجر.

تمالك نفسه وقال: ابنك يا سيِّدتي يحمل مسدَّساً.

زأرت: وماذا في ذلك، من حقّه أن يدافع عن نفسه.

أحسَّ محمود أنّه قريب من النهاية، نهاية شيء لا يعرفه، لكنّه يحسّه... تجمَّد ويده تقبض على سمَّاعة الهاتف التي بلَّلها عرق الذلّ... تمزَّقت طبلة أُذنه وهو يسمع زعيقها: أتشكو ابني يا حيوان، سترى!

اختفى محمود أيّاماً، ثمّ عاد إلى منزله حليق الرأس وعلى جسده آثار كدمات وجُرّد من منصبه. لكن سمعته الحسنة مكَّنته من إنشاء معهد لتدريس اللُّغة الإنكليزيّة.

أخذنا نَفَساً عميقاً، ضحكت سهى وقالت: بسيطة يا رجل، واللَّهِ أنت محظوظ. ماذا أُحدِّثكم عن زوجة «السيِّد دال» الثانية، التي كانت توقظني من نومي، لأُرافقها إلى الدكاكين بعد أن نجرَّ أصحابها من بيوتهم ليفتحوا دكاكينهم بعد منتصف الليل إرضاءً لنزوات الزوجة المدلَّلة التي تتذكَّر فجأةً أنّها تريد الفستان أو الحذاء أو عقد الألماس... لكنّها في غمرة مشاغلها تنسى أن تشتري ما ترغب فيه في النهار.

سألت: وهل كانت تدفع . . .

ضحكت سهى: حسب المزاج . . . في أحيانٍ كثيرة لم تكن تدفع، وكان صاحب المحلّ ينحني شاكراً نعمةَ وجودها في دكّانه.

اتصلت بي ذاتَ ليل عاصف لأرافقها لشراء معطف من الفرو، كنتُ مُنهكة من الرشح والتعب. رجوتها أن تنتظر حتّى الصباح فنهرتني قائلة: يا حمارة، لِمَ عليَّ الانتظار؟ أنا رغباتي أوامر. ابتسمت سهى بمرارة مَنْ يستعيد ذكريات مهينة، تنهَّدت وقالت كأنّها تُحدِّث نفسها: الحمد لِلَّه أنّ أولادي لا يرون ولا يسمعون، أيّ إهانات نتعرَّض لها.

ضحكنا وشربنا نخب صداقة تبلسم جراح روحنا المهانة.

صرخ أحد الأصدقاء: يا مجانين، أَغلقوا النوافذ، واللَّهِ لن ننام اليوم في بيوتنا . . . أسرع اثنان من الحاضرين يغلقون النوافذ، بينما تنهَّدت صفاء، مدرِّسة الرياضيّات القديرة، ووضعت رِجْلاً فوق رِجْل، شاعرةً بأنَّ دورها قد حان في أداء شهادتها . . .

حدَّقت إلى البعيد قالت: اسكتوا، أنتم لم ترَوْا ما رأيت . . . كنت أُدرِّس أولاد: «السيِّد دال» مادة رياضيّات، أذهب إلى قصرهم ثلاث مرّات في الأسبوع، وأقضي ساعات. ياه كيف سأصف لكم هذه الساعات، لكلِّ ابنٍ طابق فخامته أسطوريّة، ألعاب غريبة الأشكال، تلفونات، كاميرات، تلفزيونات، كما لو أنّني في محلٍّ فخم. لكن الأهمّ أنَّ أصوات تعذيب وصراخ أُنثوي كانت تتناهى إلى سمعي دوماً، فزوجته الثالثة موهوبة في التفنُّن بتعذيب

خادمتها، تكويها بالحديد المُحمَّى، تدقُّ رأسها بالجدار، إلى أن بلغت ساديّتها حدّاً تقطع به لسان الخادمة. . .

شهقنا غير مصدِّقين: غير معقول!

ـ أجل قطعت لسانها كي لا تصرخ. . . لا أنسى ذلك اليوم، إذ فجأة علا صراخ السيِّدة، وأخذت تُنادي الخدم بغضب، كي ينقلوا تلك الحيوانة إلى المستشفى، إذ لم تتوقّع أن ينزف اللسان إلى هذه الدرجة. . .

تعلّقت أنظارنا بوجه صفاء النقيّ الذي عبرته سحابة حزن وسألنا: وماذا حدث بعد ذلك.

قالت: لا شيء.

صرخنا بحنجرة واحدة: لا شيء، أيُعقل ذلك، كيف تقولين لا شيء؟

في الواقع، ما عدتُ أسمع صوت صراخ أليم في القصر، يُقال إنَّ الخادمة ماتت، والبعض قال إنّها أعادتها إلى أهلها، وتردَّدت شائعات أنَّ الخادمة انتحرت، لكنّي سمعت مؤخّراً أنّ الخادمة مسجونة في قبو القصر، وأنا أُرجِّح الاحتمال الأخير.

علّق أحد الأصدقاء: يا إلهي، أإلى هذا الحدّ حياتنا مُنتهكة. . .

وقف زوج صفاء وقال كأنّه يخطب: اسمعوا ما سأحكيه إذاً، هل تذكرون ذلك العصر الماطر منذ ثلاث سنوات، كنتُ أسير في الشارع قرب منزلي، حين تدفَّق مطر من الرصاص من «السيِّد دال» وحاشيته. . . إطلاق نار من دون سبب، رفع قميصه وأشار إلى

نُدبات لرصاصات اخترقت جسده. . .

سألته: أكان رصاصاً حقيقيّاً أم خردق صيد؟

ـ لا، بل رصاص، لكنّه يتناثر في كلِّ اتّجاه. . . اثنان من المارّة توفّيا.

ـ لكن ما سبب إطلاق النار عشوائيّاً ـ سألنا ـ.

ـ لا يوجد أيّ سبب، استدرك زوج صفاء: يا لغبائكم، أيّ أسباب تسألون عنها، لا يوجد سوى سبب وحيد، السُّلطة. . . السلطة التي تجعل هذه الحفنة المريضة والمشوَّهة تتصرَّف تلك التصرُّفات.

ـ قال أحد الحاضرين: اللّه يلعنكم ويلعن هذه السهرة. قلبتم جلستنا إلى جلسة نَكَد وغمّ، أتينا لنفرفش، فنكّدتم علينا. . .

لم ننتبه إلى أنَّ أحد الأطفال كان يسترق السمع، توقّعنا أنَّ الأولاد يلعبون في غرفة النوم، لكن فادي الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره كان يقف عند باب الصالون ويسمع كل كلمة. . .

اقترب من والده وهمس في أُذنه: بابا، مَنْ سيُعاقِب «السيِّد دال».

عبس والده ونظر إليه مؤنِّباً: أتسترق السمع يا فادي.

قال الصغير متأسِّفاً: لم أكن أقصد ذلك، لكن. . .

ربت الأب على رأس ابنه وردَّد سؤاله: تصوَّروا، سألني فادي مَنْ سيُعاقب «السيِّد دال». ضجَّ الجمهور بالضحك.

قالت صفاء: اسمع يا حبيبي، عزرائيل نفسه يخاف «السيِّد دال».

علّقت سهى: معك حقّ، أكبر دليل أنّه لم يُصَب بأيّ أذى حتّى الآن. . .

قال محمود: اسمع يا حبيبي، حين يكون الخوف عظيماً، فإنّه يشلّ كلّ رغبة من الانتقام.

صرخت زوجة محمود: محمود، أتخاطب طفلاً بهذه اللُّغة المعقّدة.

أكَّد محمود: إنّه يفهم، أولادنا يعرفون كلّ شيء، حتّى لو لم نحكِ لهم مباشرة.

اعترضت زوجته: بل لا يعرفون.

ـ أُؤكِّد لك أنّهم يعرفون، هل نسيتِ يوم كنتُ، مدير مدرسة، وكان ابن «السيِّد دال» يأتي كلّ يوم حاملاً مسدَّساً. . .

التفتت زوجة محمود إلى فادي الذي عكست عيناه حزناً شوّه الوجه الطفولي:

ـ اسمع يا حبيبي، نحن نعيش في هذا البلد الحيط الحيط، ويا ربّ السترة، هل تفهم هذا المثل.

ردَّ فادي: أجل.

ثمّة رغبة جامحة، غير مفهومة انفلتت منّا، ولم يعد بإمكاننا إيقاف تدفّق الحديث عن «السيِّد دال». انهمرت القصص كمطر من رصاص: قصّة الشابّ الذي جنّ لأنَّ كلاب حراسة «السيِّد دال» اقتلعوا أربع نخلات بديعة من حديقته ونقلوها إلى حديقة «السيِّد دال»، من دون أن يستأذنوه ومن ودون أن يدفعوا ثمنها. قصّة الشابّة الجامعيّة التي أرادها «السيِّد دال» محظية، وعشيقة،

فاضطرَّت أُسرتها إلى الفرار من البلد، ولم يعرف أحد إلى أيِّ بلد هجَّت.

تحوَّلت السهرة إلى مباراة في سرد قصص «السيِّد دال». من ينسى تلك المرحلة، بداية شباب «السيِّد دال»، حين كانت متعته أن يدخل المقاهي المكتظّة بالرِّجال، ومعظمهم من الكهول، ويطلب إليهم الانبطاح أرضاً تحت الطاولات، ثم يطلق الرصاص في الهواء، وهو يقهقه، ولسانه ينفلت بأقذر الشتائم. مَنْ ينسى يوم طلب من كهل نحيل أن يحشر نفسه في طبُّونة السيّارة. ثم أغلق الباب، وقاد سيّارته وهو يضحك ضحكاً هستيرياً ثمّ أعاد الكهل إلى المقهى، كومة من الذلّ والمهانة.

قال محمود: لعن اللّه مَنْ فتح باب الحديث عن «السيِّد دال». طيِّب، ما فائدة هذا الكلام سوى تأجيج ألم الذلّ الذي نعمل جاهدين على تجاهله.

ـ وهل تصدِّق أنّنا نجحنا في تجاهله، واللّه عيشة الكلاب أفضل من عيشتنا.

ـ أكيد فالكلاب حرّة في أن تنبح متى شاءت.

بكت صفاء فجأة وهي تقول: لو كانت حياتنا معقولة، لما هجَّ ولداي.

قمرٌ وحيدٌ ومتعاطفٌ أطلّ من شقِّ النافذة، وحاول إنقاذ طفل، لم يتحمَّل قلبه الفتيّ كلَّ هذا الألم المُهين. كان فادي منطوياً من الألم المُهين، والدموع متجمِّدة في عينيه. تُرى، تحت وطأة أيّ مشاعر قاسية كان يرزح هذا الجسد الصغير، حين انتفض

فجأة، واعتلى كرسيّاً، وسحب بارودة الصيد عن ظهر الخزانة، وصوَّبها بيديه الطفوليّتين المرتعشتين إلى عنقه متذكِّراً لقطة من أحد أفلام العنف... دوّى صوت طلق ناري... أسرعنا لنجد فادي متكوِّماً على الأرض غارقاً بدمه، شلَّتنا المفاجأة... لم نستطع الكلام، لكن عيوننا فضحتنا. لقد قتلناه. قتله تحمُّلنا المُهين للذلّ، قتلناه لأنّه أحسَّ بالعار كونه ينتمي إلينا... وحدها أُمّه انهارت إلى جانبه، تحتضن جسده الصغير، وهي تئنّ من الألم وتبرطم بكلمات: «قتله «السيِّد دال»»!

إدمان الذلّ

احتاجت إلى ستة أشهر من التدبير الصارم كي تسافر إلى بيروت. لم تصدّق أنّها حقّاً ستسافر إلاّ بعد أن قدّمت لها صديقتها قصاصة ورق بتاريخ موعدها مع طبيب الأعصاب الأكثر شهرة في بيروت، أحد أهمّ الأطبّاء الذين برعوا في علاج التهابات الأعصاب مجهولة السبب. منذ سنوات وهي تشكو من ألم في كتفها عالجته بالمسكّنات ثمَّ تطوَّر الألم إلى تحدُّد في الحركة، فما عادت قادرة على رفع يدها إلى الأعلى ولا على تمشيط شعرها، ثمّ بدأت آلام لا تحتمل أشبه بالحرق لكتفها وذراعها حتّى أطراف أصابعها. أعطاها الأطبّاء الذين قصدتهم علاجات فاشلة، هدأت آلامها لفترات بسيطة لتعود تلك الآلام أشدّ شراسة. وحين اقترحت عليها صديقتها أن تسافر إلى بيروت لاستشارة طبيب الأعصاب الشهير، ضحكت ساخرة وهي تقول: لا أملك الجرأة على الحلم بالسفر إلى بيروت، فكيف لأستشير طبيب أعصاب مشهوراً ومعاينات الأطبّاء هناك خياليّة.

ـ يمكنك أخذ قرض، أو ما رأيك سنعطيك الدور الأوَّل في الجمعيّة التي تضمّ عشر موظّفات.

تحوّل المستحيل إلى حقيقة، وتمكّنتْ من الحصول على ألف دولار حين قبلت زميلاتها في العمل اللاّتي تجمعها بهنّ الهموم المادّيّة أن تأخذ الدور الأوّل.

شعرت بأنّها حقّقت معجزة: ستسافر إلى بيروت. تجاهلت غصّة قهر وذهنها يعرض لها كلّ المغريات في بيروت التي تعرضها لها شاشة التلفاز. لن تتمكّن من شراء أبسط شيء، لكن لا يهمّ، يكفي أن تجد علاجاً لآلامها. ياه، كم ستتباهى أمام زميلاتها في العمل حين سترجع من بيروت بزيارة الجامعة الأميركيّة، وطبيب الأعصاب الشهير، ستصف لهم شارع الحمرا، ولا بأس أن تكذب وتقول إنّها اشترت أشياء كثيرة.

عدّت الأوراق النقديّة بحرص ودقّة ليلة سفرها. لم تغفُ تلك الليلة. لم تفهم سبب قلقها الشديد، بل لم تعرف كيف تفكّر فأفكارها مغشاة بالظلمات، ربّما أقلقها صوت المطر الذي لم يتوقّف طوال الليل، وعند الصباح حين مرّ بها السائق كانت السماء تشحذ نفسها لاستئناف عاصفة مطريّة لا تعرف الاعتدال. غامت الدنيا أمام ناظريها ولم تكفّ عن ملاحقة ماسحتَي الزجاج. حاولت تجاهل شعور قويّ بالتوجُّس من حدوث احتمالات رديئة في سفرتها.

وما كادت السيّارة تعبر الحدود السوريّة ـ اللبنانيّة حتّى تحوّلت الطريق إلى بحيرة، وأُصيبت معظم السيّارات بعطل بسبب دخول الماء إلى المحرّك.

تثاءب السائق وهو يقول: لا حول ولا قوّة إلاّ باللّه، انطفأ المحرّك.

صرخت مذعورة: عطل... حدث عطل.

نظر الركّاب إليها باستغراب، إذ فاجأهم حجم ذُعرها.

حاول السائق طمأنتها: بسيطة يا أُختي، عسى أن يدور المحرِّك بعد قليل.

نظرت إلى ساعتها، الثامنة والنصف صباحاً، وموعدها مع الطبيب الثانية عشرة ظهراً، ماذا لو تأخَّرت؟! أيّ مصيبة حلّت عليها!

تحسَّست مبلغ الألف دولار كأنّها تستمدُّ منه دعماً معنويّاً تحتاج إليه، حاول الركّاب مساعدة السائق في فكّ المحرِّك وتنشيفه بمنشفة قذرة، لكن جهودهم أخفقت. بعد ساعة من الصبر فقدت خلالها أعصابها ولعنت حظّها والنحس الذي يلاحقها طوال حياتها، هاجت ذاكرتها بكلِّ الذكريات البغيضة والمؤلمة. شعرت بأنّها مُحاصرة حصاراً مزدوجاً بالذكريات البشعة والأمطار الغزيرة التي تحوّلت إلى ما يشبه السيول.

انفجرت ببكاء عاصف وهي تتمتم بكلمات غامضة. نظر إليها الركّاب بشفقة. منظر مؤلم حقّاً. امرأة وحيدة على أعتاب الخمسين تنتحب بتلك الطريقة التي تمزّق القلب. صارت ترجو الجميع أن يدبِّروا لها سيّارة تقلّها إلى بيروت لأنّها على موعد هامّ مع طبيبها.

استفزّها المطر وبات تساقطه مخيفاً، وصارت الدنيا مغلّفة بوشاح من الماء. تمكَّن السائق أخيراً من إقناع سائق سيّارة أُجرة بنقلها إلى أقرب محطّة سفر إلى بيروت.

غرقت بالماء وهي تنتقل خطوات من مقعدها إلى السيّارة

الثانية، لاحظ السائق توتُّرها، فسألها: خير يا أُختي. ما بكِ؟

وللتوّ باحت له بآلامها وحكت له قصّة التهاب عصب يدها، ومدى معاناتها. حكت له كيف أمّنت المال، كيف، وكيف... كم كانت بحاجة إلى تسوّل العاطفة من أيٍّ كان!

السيّارة عتيقة، والمطر يتسلَّل من النوافذ والبرد يعضّ قدميها لكنّها لا تبالي. تريد أن تصل إلى الموعد. كلّ شيء حسبته بدقّة: أجرة السيّارة وأجرة التكسي لتي ستوصلها إلى الجامعة الأميركيّة. من سوء حظِّها حصل العطل، وهي لا تملك مالاً إضافيّاً. لم تحسب حساب الطوارئ. بسيطة، كانت قد وفَّرت مبلغاً من المال لتشتري علبة حلوى فاخرة، تقدِّمها إلى صديقاتها في العمل تعبيراً عن امتنانها لهنّ بإعطائها الدِور الأوَّل في جمعيّة النساء الفقيرات. أعطت السائق أجرته ونزلت في محطّة السيّارات. غريبة، مبلَّلة بالماء والذلّ. بدأت آلام كتفها وذراعها تحرقها. تخيَّلت أنَّ أعصابها تتحوَّل إلى أسلاك رفيعة متوهِّجة بالنار. لم تجرؤ على طلب سيّارة أجرة توصلها إلى بيروت إذ لا طاقة لها على الدفع، ولم يكن هناك ركّاب في هذا الطقس المجنون سيسافرون إلى بيروت.

صوت المذيع في التلفزيون يحذّر من السفر، فالعاصفة في أوجها... شعرت بأنّها في كابوس تمنّت لو تصحو منه بأيّ طريقة. بدت بائسة مبتلّة بالمطر والدموع، أكبر من عمرها ومثيرة للشفقة، وكل ما يشغلها أن تصل إلى الموعد... مرّت سيّارة بيضاء مرسيدس وترجَّل سائقها ليتّصل هاتفيّاً من محطّة الباصات...

سأله مدير المحطّة: أتأخذ هذه السيِّدة معك إلى بيروت؟!

قال: لستُ ذاهباً إلى بيروت بل إلى طبرجا، سأُوصلها إلى طبرجا، ومن هناك تدبّر نفسها.

صرخت بطريقة آلية: لكنّني غريبة.

أتى صوتها مهزوماً ومنكسراً ويستحثّ الشفقة، لكن لم ينتبه إليها أحد.

سألته برقّة: كم تريد أجرة توصيلي إلى طبرجا؟

أجاب بجفاء: لن نختلف.

انطلق يقود السيّارة بلا مبالاة، وهي تجلس في المقعد الخلفيّ منكمشة، تكزّ على أسنانها كي لا تصرخ من ألم كتفها. كان يقود السيّارة بطريقة مجنونة، اعتقدت خلالها أنّه سيصطدم بالسيّارات المجاورة، قلبها ينخلع من الخوف وهي تشعر بأنّ مصيبة تتربَّص بها. لم ترتح إلى نظراته الوقحة يراقبها في المرآة الأماميّة للسيّارة، حاولت تجاهله. وضع «كاسيت» لأغان بذيئة، فصمّت أُذنيها من الصوت العالي ورجته أن يخفض الصوت.

صرخ ساخراً: هذه الأغاني تُسمع هكذا.

انكشفت لها الورطة التي أوقعت نفسها بها، فهذا الرجل يبدو سافلاً. حاولت أن تهدّئ من اضطرابها، فالمهمّ أن تلحق بالموعد، لكنّها بعد دقائق حين ما عاد باستطاعتها تحمّل الذعر من رعونته في قيادة السيّارة رجته أن يقود بحذر.

سخر منها مجدَّداً قائلاً: هل تعتقدين أنّي لا أهتمّ بحياتي. إيّاك أن تفكِّري في أنَّ حياتك أغلى من حياتي.

صُعِقَتْ وانتابها ذعر حقيقيّ. هل يقودها هذا الرجل إلى محطّة السيّارات في طبرجا! علّه سيخطفها، لكنّ ازدحام الطريق طمأنها. ألزمت نفسها بالصّمت ونظرها سارح في طريق تتعرّف إليها للمرّة الأولى. أشفقت على نفسها في وحدة بؤسها، لكنّها حاولت ـ رغماً عنها ـ بثّ شيء من الشجاعة والأمل في نفسها، المهمّ أن تصل إلى موعدها المقدّس مع الطبيب. أخيراً توقّف السائق وقال بوقاحة: لقد أوصلتك إلى محطّة السيّارات المنطلقة إلى بيروت.

وجدت نفسها في قلب ساحة مزدحمة بسيّارات الأُجرة وعلى يمين الساحة مكتب سفريات كبير، شكرته برغم قرفها منه وسألته بلطفٍ: كم تريد؟

قال بصوت جافّ: عشرين ألفاً.

شهقت: ماذا؟!

كانت لا تزال قابعة في المقعد الخلفيّ واضعة كفها على كتفها المحترق بالألم. نزل المارد من السيّارة، مدّت له عشرة آلاف، رجته أن يقبلها لأنّها مقطوعة وظروفها صعبة و...

اختنق الكلام في حنجرتها، لكن يدها ظلّت ممدودة بالمال ترجوه أن يقبل المبلغ، لكنّه صرخ متعمِّداً أن يسمع الجميع صراخه: لن أقبل أقلّ من عشرين ألفاً.

قالت: لكنّ المسافة قصيرة، وتكفي عشرة آلاف، والكلّ قال لي إنَّ أجرة التكسي عشرة آلاف.

زعق: مَنْ أولاد القحبة الذين قالوا لكِ ذلك؟

لم تصدِّق أنّها بطلة مسرحيّة مُهينة إلى هذا الحدّ. رجته أن يرأف بها ويقبل عشرة آلاف. حكت له قصّتها مع الألم وموعدها مع الطبيب، فما كان منه إلاّ أن هجم عليها وسحبها من السيّارة بفظاظة قائلاً: يا عجوز، يا نصّابة، ضعي المال في مؤخّرتك، يلعنك ويلعن الساعة التي سمحتُ فيها لحقيرة مثلك بالركوب في سيّارتي...

الرجال في الساحة يتفرَّجون بصمت، يسمعون ويرون، واقفين كالتماثيل. بدوا مُتخمين بالموت والذلّ، وبدا المارد مفتتناً بوقاحته ونذالته وقد غذّى خضوع هؤلاء الرجال شهوةَ التسلُّط والإهانة لديه.

زادت الجمهرة. يتفرَّجون على المستبدّ يمارس ساديّته على امرأة عزلاء. زاغ نظرها، لم تعد ترى الناس سوى أشباحٍ وشارف جنونها على الوصول إلى الذروة. همّت بأن تنفجر بصراخ يمزّق وشاح المطر، يا كلاب، يا جبناء، ألا تسمعون هذا الحقير ينتهكني ويُهينني، أين نخوتكم؟! ألا يتصدَّى له أحد؟!

لجمت صراخها في اللحظة الأخيرة، وعادت إلى ذلّ الصمت.

اقترب رجل كهل من المارد المتعجرف، وسأله بخنوع: خير يا أخي، ما القصة؟

صرخ الوحش قائلاً: الحيوانة ترفض إعطائي أجرتي، لقد أنقذتها من ورطة، كانت مقطوعة ككلبة، وترفض إعطائي أجرتي.

كانت ممسكة بالعشرة آلاف بآليّة، تمدُّ يدها في الفراغ، لكنّ

يدها يبست على وضع أبديّ. كانت تراقب بعينين تائهتين ذاهلتين الرجال المخذولين الوضيعين. فجأة أضاءت الحقيقة في نفسها وحدّثت روحها المذعورة بأنّنا نستحقّ كل ما يحصل لنا. نستحقّ كلّ ما نعاني منه من ظلم وقهر وانتهاك للكرامة. منحتها تلك الحادثة فرصة لاستحضار حوادث كثيرة، كانت شاهدة عليها أو سمعتها من مقرَّبين. دوماً الخوف في قلب حياتنا... والخوف لا يتمخضّ إلاّ عن الذلّ، بل إنّهما وجهان لعملة واحدة.

همس الرجل الكهل وهو يطبطب على كتف المارد: اقبل منها عشرة آلاف، تبدو امرأة مسكينة.

لطم المارد الكهل على صدره بقبضته الحجريّة فترنّح الرجل خطوات للوراء وكاد يقع لولا استناده إلى عمود لكهرباء. جلس المارد في سيّارته وهو يصرخ: ضعي العشرة آلاف في مؤخّرتك يا عجوز.

قدّموا لها مقعداً صغيراً كي لا تنهار، جلست عليه محطَّمة النفس ولا قوّة لها على قول شيء، أو فعل شيء. لم تشرح لهم شيئاً ولم يطالبوها بأن تحكي. في عيونهم تعاطف وشفقة ومودّة، لكنّ الخوف يلجمهم ويوحِّدهم...

همس أحدهم بأُذنها: اعذرينا فهو من المخابرات.

قدَّموا لها فنجان قهوة، رفضته بصمت، كانت تبكي بكلّ جموح روحها، مرتاعة من سيل الشتائم الفاحشة التي أمطرها بها رجل المخابرات!

سألتهم كأنّها تسأل الفراغ أمامها: أترضون أن تتعرَّض أخت

لكم أو زوجة أو أمّ لما تعرّضتُ له... لم ترغب في رؤية وجوههم. أتاها صوت نحيل متقطع بالقهر: واللّهِ يا أُختي كنّا نتفرَّج على ما يحدث لك وقلوبنا تدمى ألماً، لكن ماذا باستطاعتنا أن نفعل؟ واللّهِ إنّه قادر على جرجرتنا إلى تلك الأقبية المظلمة وإلصاق التُّهم بنا لو تجرّأ أحدنا وتدخَّل بينكما.

فهمتْ ما جرى. الرجل الحقير يريد إذلالهم عن طريقها. كان فنجان القهوة يتراقص في يدها غير منتبهة إلى ارتجاف أعصابها. للقهوة طعم الذلّ. وعلى الرغم من ألمها الخانق فقد أحسَّت أنّها اهتدت إلى شيء جديد، إذ وحده الخوف قادر على إيصال الناس إلى هذا الدَّرك من الانسحاق والذلّ.

ساعدوها برقّة صادقة كي تركب سيّارة أُجرة، لاحقها دعاؤهم طويلاً، كان دعاءً أشبه بالاعتذار.

لم تعرف لماذا رغبت بشدّة في أن تلقي نظرة أخيرة عليهم. كانت أجسادهم ضبابيّة، تغيم من خلال وشاح المطر، بدوا مجتمعين كعلامة استفهام كبيرة في وجه المستقبل!

الدِفتـــان

استقبلني الطبيب بابتسامة مشجِّعة. أخذَ نَفَساً عميقاً، وشمَّر قليلاً عن أكمامه كمن يعلمني أنّه يوليني كامل اهتمامه. كبحتُ رغبتي في الضحك إذ تخيَّلت كم سأُفاجئه بطلبي، بالتأكيد يظنّني مريضة. أحسستُ فجأة باضطراب شديد. نسيتُ المقدّمة التي تدرّبتُ عليها مراراً لبدء حديثي معه. لعلّه لاحظ ارتباكي فابتدرني قائلاً:

ـ أرجو أن تثقي بي ثقة مطلقة وأن تعتبريني صديقاً يفهمك ويساعدك. لا ترتبكي ولا تخجلي فالمرض النسائيّ مثله مثل أيّ مرض.

كنتُ أعرف أنّه طبيب أمراض النساء الأكثر شهرة في المدينة وأنّه يتمتّع بأخلاق مهنيّة عالية. عقصتُ شعري بملقط أخرجته من حقيبتي كعادتي دوماً لشحذ تفكيري. بدا وجهي منروءاً وصريحاً في حضرة الطبيب. وضعتُ رِجلاً على رِجل كي أوهمه بأنّي مسترخية ولستُ خائفة. قلتُ له منتبهة إلى لهجة صوتي الغريبة عنّي:

ـ في الواقع أنا لا أشكو من أيّ مرض نسائيّ، إنّما قصدتك لسببٍ آخر.

قال مبتسماً ابتسامة مشجّعة:

ـ مهما كان السبب فأنا سأدعمك وأُساعدك بكل طاقتي.

ـ أشكرك، قلبي حدّثني منذ البداية أنّك لن تخيّب ظنّي وأنّني سأجد مرادي عندك.

استأذنني ليشعل سيجارة قائلاً: كلّي إصغاء لك.

ياه... كيف نسيتُ السيناريو الذي حضّرته، اللّعنة على ذاكرتي كم صارت تخذلني، لكنّي استجمعتُ شجاعتي المتهوِّرة وقرَّرتُ أن أقذف دفعة واحدة بالكلام الذي حاولت تزويقه.

ـ أُريد أن تجري لي عمليّة الختان.

جمَّدته جرأتي، حلَّ بيننا صمت مُكهرب، استدارت عيناه دهشة، حدَّقَ بي متشكِّكاً بما سمعه، ابتسمت، قلتُ له: لم تخطئ في فهم ما أرمي إليه... أقولها مرّة ثانية، أُريد أن أُجري عمليّة الختان.

سَحَب نَفَساً عميقاً من سيجارته وقال وهو يتفحَّصني كأنّه يبحث عن بذرة اضطراب عقليّ: منذ ثلاثين عاماً أُمارس عملي كطبيب أمراض نساء ولم يسبق أن طلبت امرأة هذا الطلب؟!

وافقته مؤكِّدة: أعترفُ بأنّه طلبٌ غريب.

ـ هل لي أن أعرف أسبابه؟

ـ أتمنّى لو تُعفيني من حديث موجع.

ـ لكنّي لستُ آلة، أؤمَر بكذا فأنفِّذ! أنا طبيب ومهنتي إنسانيّة قبل أيِّ اعتبار. إنَّ شابّة مثلك، في عقدها الثالث، متعلِّمة وناجحة في عملها، جميلة و. . .

ـ قاطعته: أعرف ما ستقول. . . أنتَ ترى طلبي غير معقول أليس كذلك؟ لعلَّك تظنُّ أنّي مجنونة.

ـ أبداً، أبداً، لكن أتمنّى لو نتحاور حول هذا الطلب اللاّإنسانيّ. هذا الطلب ـ أقصد الخِتان ـ الذي لن يشوِّهك جسديّاً فحسب، بل نفسيّاً، ثمَّ أظنّك قرأت عن الآثار النفسيّة المؤلمة والكارثيّة لعمليّات ختان الفتيات. كيف يعشن أعمارهنَّ بكآبة وألم ولا يشعرن بأيّ متعة على الإطلاق. . . تلك المتعة التي هي مادّة الحبّ، وأصل التواصل بين المرأة والرجل.

التقطتُ طرف الخيط، ندبّت فِيَّ الحماسة، قلتُ له: أشكرك على كلامك، فأنا أعرفه، واسمح لي أن أُكمل ما قلته لكن باتّجاه آخر، فحين تنعدم إمكانيّة الحبِّ بين رجل وامرأة، تتحوَّل الحياة إلى انتظار طويل مُنهِك للأعصاب، لحبٍّ لن يتحقّق وأرجو ألاّ تسألني لماذا؟ لأنَّ الحياة معقّدة وسريعة كدولاب يدور ويدور، يطعن العواطف الرقيقة ولا تبقى إلاّ العواطف، أقصد الغرائز الفظّة كالحصى الباردة. كنتُ أحسُّ بألمٍ وأنا أشرح ما بنفسي، لكنّني أعرف أنَّ عليّ إقناع الطبيب كي يختنني.

قال: الحبّ، ليس له عمر معيَّن، وأنتِ لا تزالين شابّة.

استأذنته بتدخين سيجارة محاولةً إقناعه:

ـ حاول أن تفهمني، أرجوك. . . برغم أنَّ كلامي يبدو أغرب

من أن تستوعبه، لا لشيء سوى لأنّه غير مألوف. لقد تعبتُ من حالتي، من حالة التوق إلى الحبّ؛ إلى حبٍّ إنسانيٍّ صادق منزّه عن الأغراض، لم يحصل، وأعرف أنّه لن يتحقّق. لقد عشتُ سنوات طويلة مسرفةً في الانقياد إلى عواطف الحبّ والحنان، لكنّي لم أجنِ سوى الوحدة العميقة الأشبه بالصقيع. لا تنظر إليّ بهذه الطريقة أرجوك، لكأنّك تقول لي إنّه حين يكون في رأس المرأة أفكار كهذه فمن العار أن تعلنها. أنا تعيسة برغم نجاحي في عملي، تعيسة لأنّي أربط سعادتي وانسجامي النفسيّ والعاطفيّ بالحبّ... بالرجل الحلم. أتعرف صار توقي الشديد إلى الحبِّ حِمْلاً لا فائدة منه. إنّه يُشعرني بأنّي ميتة وأنا لا أزال حيّة؛ يُشعرني بأنَّ شبابي يُهدر لأنّي لا أذوب بين أحضان رجل يحبّني لذاتي، ولستُ بالنسبة إليه شهوة عابرة.

ـ أقرأ السؤال في عينيك، كيف لم تلتقِ برجل حياتك؟!

ـ أقول لكَ، أنا نفسي لا أعرف، لعلّه الحظّ كما يُقال وأظنّك تعرف أنَّ هنالك آلافاً من النساء الوحيدات مثلي والمتلهّفات للحبّ. ياه... لو تعرف كيف أنّ مزاجي الحزين والكئيب في غياب الحبِّ يصيبني بداء غريب هو داء الخَرس، فأظلُّ أيّاماً لا أنطق بكلمة منطوية على ذاتي وحزينة...

لم أترك للطبيب فرصة السؤال أو الاستيضاح... كنتُ أستبقُ أسئلته من شدّة استعجالي للبوح:

ـ أتدهشكَ شجاعتي، معك حقّ، الحزن يبثُ في النفس الشجاعة. لقد مللتُ من انتظار الحبّ الذي تتحقّق به أُنوثتي وشخصيّتي... أتعرف أنّ الشجاعة والحزن صفتان متلازمتان؟!

قاطعني رغماً عنّي لكنّكِ يا سيِّدتي، لا تزالين شابّة والفرص أمامك كثيرة.

ـ الفرص! هذا هو وجعي، الانتظار والحُلم... لقد تعبتُ من انتظار الفرص، ومن التوق إلى الحبّ. فحين أسافر في رحلة أُحسُّ بوخز ألم كوني وحيدة. وحين ألبس ثياباً جميلة أُحسُّ بغصّة، إذ لا يوجد رجل حميم يحبّني ويُطريني. كلّ يوم أتناول طعامي وحيدة متخيِّلة طيف رجل... وفي الليل، الليل حالة خاصّة لأنّه يجسّد لي وحدتي، أتعرف صرت أندهش حين أتفرّج على لقطات غراميّة في الأفلام، لكأنَّ هؤلاء بشر من طينة أخرى لا أنتمي إليها.

إلى متى سأعيش أقرأ عن الحبِّ أو أُشاهده، إنّما لا أعيشه، وكل مساء أتدثّر بغطاءٍ بارد لا يحمل سوى رائحة وحدتي.

أدركتُ أنّ الطبيب يداري تأثّره، لكن في عينيه تعاطفاً شديداً معي. ربّما صدمته صراحتي الخارقة وصدقي الغريب. بدا مُفلساً لا يعرف كيف يردّ عليَّ.

أخذتُ نَفَساً عميقاً، وحلَّ بيننا صمتٌ مترقّب، تابعتُ كلامي:

ـ أرجوك أيّها الطبيب، لا تخذلني، حين سأُجري عمليّة الختان سأرتاح من أكثر شيء يعذِّب الإنسان: الأمل... الأمل أو السراب ـ لا فرق. ستريحني من ألف تنهّدة وحسرة كلّ يوم على رجلٍ أتمنّاه ولا يوجد. عندها ـ أقصد بعد العمليّة ـ سأكون سعيدة تماماً، وقد تحرَّرتُ من وجعِ الغريزة ومن توق الحبّ، وسأستمتع

بما تقدِّمه لي الحياة من مباهج، سأكون مكتفية بذاتي وسأعود إلى بساطة الخلق الأُولى... كائن لاجنسيّ.

- لكن، ألم تعيشي تجارب عاطفيّة من قبل؟ فَلِمَ أنتِ يائسة من احتمال تكرارها؟

ضحكتُ من قلبي: أجل عشتُ تجارب ممسوخة وقصيرة العمر. ألا تعرف يا دكتور أنَّ الفرح سطحيّ وأنَّ المرارة تترك وشماً عميقاً في الذاكرة، فأرجو أن تُعفيني من تفاصيل تجاربي. صدّقني أنا مصمِّمة على العمليّة.

ابتسم الطبيب بمرارة: كم يحزنني أنَّ هذه الرغبة طالعة من أعماقك.

غامت نظرة الطبيب. أحسستُ أنّه لم يعد يراني، انتفضَ عن كرسيّه كما لو أنَّ فكرة مرعبة قذفته من مكانه، اقترب منّي وسألني بقلق كأنّه يحدِّث نفسه:

- هل لديك صديقات يرغبن في إجراء هذه العمليّة؟

كان ذعره يتكاثر كدوائر تتوالد من نقطة...

أجبته بابتسامة، احتار كيف يفسِّرها... في عينيّ تصميم وفي عينيه ذهول... وبين ذهوله وتصميمي لَمَحنا طيف آلاف النساء الرّاغبات في الخِتان.

حبيبي المُعاق

لا أنكر أنَّني كنتُ أنظرُ بشيءٍ من الاستخفاف إلى اللاّفتة العتيقة وقد كُتب عليها بالرَّمادي: «مدرسة المُعاقين»؛ عبارة تعني حكم قيمة على المعاقين، هؤلاء الذين لا يشبهوننا، ولا يرتقون إلى ذكائنا ومشاعرنا. لكنِّي لم أعرف سبب وقوفي، كلَّ مرّة مقابل هذه اللاَّفتة، وتحديقي العميق فيها لبُرهة، شاعرةً بأنّ مشاعر لا هويّة لها غامضة ومدفونة عميقاً في روحي يمكن أن تتحرَّر إذا استمرَّ تحديقي في تلك اللأفتة. فأسرع في خطواتي باتّجاه معهد اللغة الإنكليزيّة، خائفة من المواجهة!

كنتُ قد اتّخذتُ قراراً أن أُتقن تلك اللُّغة، وأُنمِّي قدراتي كافّة، وأشذِّبها كما لو أنّني أعتني بنبات. وعلى الرغم من أنَّني أدَّعي التواضع، وأُدين نفسي على عشق الذات، فإنِّي أعرف إنِّي أنظر إلى نفسي كما لو أنّني مركز العالم. حتّى مواقفي الإنسانيّة مع مَنْ حولي كانت تُسعدني لأنها تعطيني إحساساً بطريقةٍ ما بتمجيد الأنا!

ذاتَ عصر اعتذر أستاذ اللّغة الإنكليزيّة عن الدرس، فأحسستُ بسخط، لكن رفاقي ابتهجوا وقرَّروا مجتمعين الذهاب

إلى مقهى بحريّ. راقني اقتراحهم، فأنا بحاجة إلى أن أروّح عن نفسي، لكن ما إن سقط نظري على اللاّفتة الرماديّة، حتى تملّصتُ من رفاقي، وأسرعتُ بقلبٍ مرتعش بهوى غامض أضغط بإلحاح وقلبي يسبقني: جرس «بيت المعاقين».

فتح بوّابٌ كهلٌ البابَ الحديديَّ العتيق، وسألني من أُريد؟ قلت: أُريد أن أُقابل المدير. لا أعرف لماذا كنت أرتعش، وأشعر بأنَّ دموعاً حارقة تتشكَّل خلف عينيّ، كأنّي قرَّرت فجأة أن أدخل عالماً جديداً لطالما ظلَّ منفيّاً ومُغيَّباً بالنسبة إليّ.

دلّني البوّابُ بحركةٍ مُتعبة من يده على مكتب المدير. كم كانت الباحة كئيبة وقذرة والبناء قديماً ومُهملاً، كأنَّ المشهد يقول بأنَّ هؤلاء المعاقين لا يستحقّون سكناً جديداً، تجري صيانته كلَّ فترة.

استقبلني المدير بدهشة. يبدو أنّه لا يستقبل زوّاراً. لم أستطع أن أصارحه بأنّي لا أعرف سبباً لزيارتي، ادّعيت أنّي أُعِدُّ بحثاً عن المعوقين، ابتسم مدارياً سخرية فضحتها ملامح وجهه.

ـ لا أعرف غاية هذه الأبحاث والدراسات، فهي لن تغيِّر من وضع هؤلاء المساكين.

ـ ماذا تقصد؟

ـ سيظلُّون أسرى تخلُّفهم.

حدّثني أن معظم الإعاقات عقليّة، بسبب أمراض خُلقيّة، أو تأذٍّ شديد للدماغ بعد الولادة بسبب مرض أو ضرب أو سقوط. المعاقون الستة والعشرون الذين تضمُّهم المدرسة، تتراوح أعمارهم بين الخمس سنوات والخمسة عشر عاماً.

سألته: هل تنصحني بأن أركّز دراستي على مُعاقٍ معيّن؟

فكّر لبُرهة ثمَّ أجاب: الحالات هنا متشابهة كما قلت لك، كلُّهم مصابون بأدمغتهم، أشار بيده إلى رأسه، لكن هناك طفلاً يسهل عليك دراسته لأنّه منطوع من شجرة، فلن تحتاجي إلى استئذان أحد من ذويه، فلا أحد يسأل عنه. تصوّري، أنّ والدته أحضرته منذ أربع سنوات وكنت تزوره مرّة في الشهر، ثمّ انقطعت عن زيارته نهائيّاً.

لكن، أليس له أقارب؟

ـ أجل، لديَّ عناوين بعض أقاربه، لكنّهم ينكرونه.

ـ إذاً، لا أحد يزوره أو يسأل عنه؟

ـ أبداً.

ـ ما اسمه؟

ـ فادي.

قادني إلى غرفة المُعاق. كانت غرفة بائسة تضم ستة أسرّة. سرير فادي يشبه القفص، وقد تكوَّم داخله كجنين ـ كان نائماً ـ وجسده النحيل الرقيق متكوِّراً كأنّه يحتمي من خطرٍ خارجيّ. قرَّبت وجهي من وجهه حتى سمعت أنفاسه الخافتة، وأدركت بلحظة وبطريقة غامضة، أنَّ ثمّة مُعاقاً في قلب كياني. كانت منامته مهترئة، وجوربه مثقوباً، والغطاء الذي يفرش سريره باهتاً، وفيه بعض الشقوق.

لم تفارقني صورة فادي طوال الوقت. قرَّرت أن أمضي يوماً معه، وحين أويتُ إلى فراشي وجدتني أتكوَّر مثله، محاولةً اكتشاف

مشاعره وهو يطوي نفسه بتلك الطريقة. أحسستُ وأنا أقلّد وضع فادي النائم، أنَّ العالم أشبه بنصلٍ كبير ينغرس في ظهري!

حين التقيته صباح اليوم التالي، كان يتناول فطوره بمساعدة مُربية نزقة متضجِّرة منه، تشتمه بأبشع الشتائم المُهينة، وتدعو له من دون ذرّة خجل أو إحساس بأن ينقصف عمره ويرتاح ويُريح؟!

بدا فادي منهَكاً، زائغ النظرات، يطلق صراخاً حاداً متقطِّعاً. أخبرتني المربِّية أنّها سحقت أدويته وخلطتها مع فطوره، كي لا يختلج. شعرت بأنّني يجب أن أعتذر إليه لأنَّ صحتي جيِّدة، فأنا أبدأ نهاري بتفاؤل ونشاط، أشرب القهوة وأفطر، أستمع إلى نشرة الأخبار وأنطلق إلى عملي.

أمّا فادي فكتلة من التشتُّت والعذاب: كيان معطوب، يكرِّس إعاقته كلَّ يوم أكثر فأكثر. شعرت بأنّه يبتلع العذاب والذلّ مع فطوره، فدواؤه يساعده على إطالة حياة غير مجدية. علا صراخه وأخذ يضرب رأسه بقوّة بقبضتيه الصغيرتين. أجفلتُ وحاولتُ منعه، لكنَّ المربِّية ضحكت ولم يبدُ عليها أيّ تأثُّر، قالت:

- هكذا هو، يضرب نفسه دوماً.

- سألتها بفزع: لماذا؟

- لأنّه مريض، ومُعاق، ربّما لأنّه عاجز عن التعبير عمّا يريد كما يقول الأطبّاء.

مسحت فمه كيفما اتفق، وأحضرت له الكرة. صرخ فرحاً وقام بضربها بيده ورجليه بحماسة ونزق. أنهكه اللعب، لكنّه لم يتوقّف. لعبٌ مهتاج يهدُّ جسده النحيل هدّاً، لعبٌ ليس فيه نموٌّ

وفرح، مجرَّد قوّة ظالمة عشوائيّة تتلبَّس جسد هذا الصغير الذي يُترَك لساعات يتصارع مع كرة! كما لو أنه يُصارع قدره محتجّاً بصراخه الحادّ على مصيره.

فكَّرتُ وأنا أتأملُ هذا الصغير البريء من إعاقته في أنّه لن يتعلَّم شيئاً طوال حياته. ومن بعيد لمحت الأطفال يحملون حقائبهم المدرسيّة، بينما فدي لن يتعلَّم القراءة ولا الكتابة، ولن يعرف الصداقة. سيظلّ وحيداً، وستمرّ أيّامه بلا جدوى، وسيعبر الحياة من دون أن يترك بصمة.

ابتكرتُ تعريفاً جديداً للإعاقة: الإعاقة الحقيقيّة هي الوحدة.

اقتربت منه وقبّلته. لم يبدُ عليه أنّه أحسَّ بتلك اللّمسة الإنسانيّة. ناديته باسمه مراراً، فانتبه إليّ أخيراً. حدَّق في وجهي لبرهة ثمّ أشاح بنظره عنّي، وعاد إلى لعبه المجنون بالكرة. كان من وقت إلى آخر يتوقّف عن اللّعب ليضرب رأسه بقوّة وهو يطلق صراخاً حادّاً، لم أميِّز: أهو صراخ غضب أم فرح!؟ كنت أُتفرَّج عليه، وقلبي يختنق بألم يائس. أيّ حياة يعيشها هذا الصغير! حياته ليس فيها شيء من حياة. حتّى أُمّه تخلّت عنه، لأنَّ الأولاد يجب أن يكونوا مصدراً للتباهي وليس للخجل. حاولت أن أخلق أيّ معنى لحياة هذا المعاق، وتمنّيت وأنا أتأمَّله لو أُقنع نفسي بأنَّ الشرّ هو الخير، وأنّ الطعم المرَّ هو نفسه الطعم الحلو.

سألت المدير إن كان يسمح لي أن أصطحبه في مشاوير قصيرة خارج تلك المصحّة الكئيبة.

ضحك قائلاً بأنَّ كلَّ الأمكنة متساوية لديه، لأنّه لا يدرك شيئاً، ونظره ضعيف.

ـ لكنه يلعب بالكرة؟

ـ إنّه يميّز الحركة فقط، أمّا الرؤية الدقيقة فهو عاجز عنها، فهو لا يستطيع متابعة برامج التلفاز الخاصة بالأطفال.

سألني المدير لماذا أنا مهتمّة بهذا الصغير!

وحين هممت بالإجابة، خانتني الكلمات. لم أستطع أن أصوغ جملة. ما أعرفه أنّي متكهربة بحبٍّ هذا المُعاق، كما لو أنَّ ثمّة سرّاً بيننا... أحسست بطريقة ما أنَّ فادي يحفظ سرّ وجودي.

صرتُ أصحب فادي في نزهات قرب الشاطىء، فأتعلَّم رؤية سحر البحر، لأنَّ عينيه الكفيفتين نبَّهتاني إلى نعمة الرؤية... كم كنت أفرح حين تتورَّد وجنتاه. كنت أصحبه إلى البيت، أقصُّ أظافره وأغسل جسده النحيل. اكتشفت أنّه يحبُّ الاستحمام. كان يُصدر أصواتاً حادّة أشبه بالزقزقة ويضرب رأسه بيديه الصغيرتين علامةُ النشوة، لكن أيّاً من أفراد أُسرتي لم يقربه كأنّه وباء، ولطالما نظروا إليّ نظرات مُوبِّخة كأنّني أضيِّع وقتي سدى.

أعطتني أُختي ثياب صغيرها العتيقة الذي يقارب فادي في السنّ. فكّرت في أنّه لم يخطر لها أن تعطي المعاق ثياباً جديدة! لكن لِمَ ألومها، ألم أُفكّر في البداية في أن أشتري للمعاق ثياباً رخيصة لمجرَّد أنّه مُعاق؟

نبَّهني هذا الصغير المتخلِّف إلى قسوة البشر، جعلني أنظر إلى نفسي وإلى العالم من منظور آخر. إنّه يُهديني إعاقته لأفهم

جوهر الحياة، ولأُدرك معنى الصحّة، ومعنى الذكاء، لأُحسّ بالجمال. يُهديني عماه، لأستمتع بروعة الغروب وسحر الشروق وجمال الطبيعة. إنّه الضريبة التي يدفعها للقدر نيابة عنّي كي أعيش حياة مرفّهة وبصحّة ممتازة.

لم أفهم نُوَب البكاء المفاجئة التي كانت تنتاب فادي، بُكاء مُفجع، لم يعرف أحد سببه. يبكي ويبكي، والحزن يرسم خطوطاً عميقة على وجهه الجميل. على وجه طفل لم يكمل السادسة من عمره.

لا تجدي معه محاولات التهدئة. تُرى، ماذا يشعر في تلك اللحظات وهو يبكي بكلِّ جموح روحه المعذّبة؟ لعلّه يدرك بطريقته الخاصّة ما أصعب أن ينبذه العالم ويكرهه ويتخلّى عنه، وما معنى أن يحتقره الناس في إعاقته ويتمنَّوا موته. أنظر إلى عينيه الواسعتين الجميلتين وهما تذرفان الدموع بغزارة، يذهلني حزن عيني الطفل... أعجز عن وصف مشاعري في تلك اللّحظات. هناك لحظات للتأمُّل الذي يستحيل أن يتحوَّل إلى كلام؛ تأمُّل أشبه بالخشوع، أشبه بالارتماء في حضن غامض حنون.

تنتهي نوبة البكاء بالنوم. ينام فادي متكوِّراً على نفسه ووجهه مبلَّل بالدموع، ويطلق من وقت إلى آخر تنهُّدات عميقة خارجة من صدره الصغير؛ تنهُّدات فيها نفاد صبر، كأنَّ روحه تريد أن تتحرَّر من سجن الجسد.

كلُّ من حوله يكلِّمه بفظاظة، ولا يجد أيّ حرج في صفعه على خدِّه ليخفِّفوا من هياجه المُزعج. الكلُّ يتمنَّى له الموت.

حتّى أهلي ما عادوا يتحمَّلون أن أُحضره إلى البيت وأعتني به. اكتشفتُ أنه يحبُّ الذرة المسلوقة والشوكولا، ثمّ وجدتني أعلِّمه القبلة. لم يكن فادي يعرف ما القبلة. صار يقبِّلني كلَّما أعطيته شوكولا، أو كرة جديدة: قبلة مضحكة، قبلة على سذاجتها ورداءتها، تجعل الدموع تتزاحم في عينيّ. ينظر إلي أهلي وأصدقائي بشفقة ممزوجة بسخرية، يقولون لي صراحة: اتركيه إلى مصيره، لا تخدعي نفسك بأنّك تمارسين إنسانيّتاك في شكل عظيم. فهو مُعاق إلى درجة لا يميّز شيئاً، ولا يحسّ بشيء. إنّه مثل قطعة خشب. تختنق غصّات القهر في حنجرتي وأهمس لهم: لكنّه يبكي! فيضحكون!

حاولت أن أقسو مثلهم معتقدة أنّني أُحكِّم صوت العقل. مرَّت أسابيع أجبرتُ نفسي فيها على تجاهل فادي. تركته إلى عزلة إعاقته. كنت أنخرط بفعاليات الحياة، أعمل بنشاط، ألتقي أصدقائي، أرسم المشاريع والخطط، لكن شبح الصغير المُعاق كان يلحقني دوماً. يسكنني هذا المعاق بطريقة غريبة! يسكنني كما لو أنّه يُريني إعاقة البشر المدفونة في أعماقهم، الإعاقة الأكبر هي القسوة.

يعلِّمني فادي تلك الحقيقة، ينبِّهني بأسلوبه الخاصّ، إلى أنّنا بشر ناقصون مخجلون بقسوتنا وأنانيّتنا وغرورنا التافه.

كنتُ أحاول أن أفسِّر وجود المعاقين في حياتنا، كأمر عاديّ يجب تقبُّله مثل الشجرة التي تحمل ثماراً صحيحة وأُخرى مريضة.

أحسست بعد أسابيع من إجبار نفسي على تجاهل فادي، أنَّ كياني يتداعى، إثر هزّةٍ قويّة أصابتني، عرفت أنّها هزّة الحبّ التي

لا يمكن تجاهلها. لم يعد بإمكاني تجاهل هذا الصغير، إنّه يعنيني كثيراً. أسرعت إلى السوق، اشتريت له ثياباً جديدة من أحسن الأنواع، عارفة أنّه لن يقدّر ما يلبس. وملأت كيساً بأنواع الشوكولا، وآخر بالذرة المسلوقة. انهمرت دموعي وأنا أستعيد بذاكرتي صوت المربّية تدعو له بالموت مع كلّ لقمة طعام تدسّها في فمه.

ركضتُ إلى مدرسة المُعاقين بقوّة الشوق إلى فادي، دموعي تنهمر وأنا أسرع إليه، أعرف أنّه وحده يقيني من الغرور الزائف، والانتفاخ بعشق الذات، أعرف أنه يهديني إعاقته كي أنمو وأكبر في الإنسانيّة.

وما إن فُتحت لي البوّابة الحديديّة لمدرسة المعاقين، حتّى ركضت إلى غرفة فادي. ذهلت، كان معصوباً بضماد كبير على الرأس الطفوليّ...

قال لي المدير، إنّه سقط أرضاً في إحدى نوبات اختلاجاته...

حملته، وأمطرت وجهه قبلات مشتاقة... وبعينيه اللتين بالكاد تميّزان الضوء والحركة، حدّق في وجهي، ثمّ ألصق فمه المبلّل باللُّعاب بخدّي... قبلة مُعاقة، هي وسام شرف لي.

القــاتل

جمدّني الخبر: سليم يقتل! هذا مستحيل. لكن دويَّ جريمته في المدينة لا يعرف حدوداً. يُقال إنّه انتظر الرجل الذي يؤجِّره بيته في مدخل الدرج المعتم ثمّ أطلق النار عليه من بندقيّته التي يصطاد بها الخنازير.

يعني لي سليم طفولتي وشبابي. كنّا من جيل واحد، تربط والدينا قرابة، لكن صداقتنا توطَّدت لأنّنا نؤمن بالمبادئ والأخلاق نفسها، ونعتقد أنَّ الحياة يجب أن تُعاش بقدسيّة وشرف. كان سليم يعشق الموسيقى ويبدع لوحات رائعة يُهديها لأصدقائه. وبرغم نصائح الجميع بأن يبيعها ظلَّ يرفض تسليع فنّه. تخرَّج من كليّة العلوم وعمل مدرِّساً. يشهد الجميع له بالنزاهة، لم يرضَ أن يعطي دروساً خصوصيّة بل كان يساعد كلَّ الطلاَّب الذين يقصدونه مجّاناً.

كنتُ أُمازحه قائلة: واللَّهِ يا سليم، أنت متناقض، فأنت الرجل الرقيق مرهف الحسّ تحمل بندقيّة صيد كلَّ يوم جمعة وتقتل.

يضحك قبل أن أُكمل كلامي: لكنّي أقتل الخنازير.

ـ وقتل الخنازير أليس قتلاً!

ـ لا بأس أن نقتل الخنازير.

حكى لي أنَّ الصيد يعني الاستمتاع بالطبيعة واكتشافها، وأنَّ رحلات الصيد الطويلة تنقّي روحه المُتعبة وتجدِّد حيويّته الداخليّة المسمَّمة بالروتين. حتى صيده كان يوزّعه على أصدقائه.

قرَّرتُ زيارته في السجن، بعد أن رجوتُ العديد من المعارف المتنفّذين ليسمحوا لي بزيارة القاتل. وحين ضمّتنا غرفة حقيرة تفوح منها رائحة عفن واخزة، شعرتُ وأنا أنظر إليه بأنّي أُعطيه هدوئي الظاهريَّ وأمتصّ فزعه. لمحتُ في عيني سليم فزعاً وعدم تصديق، لكأنّه هو ذاته لا يصدّق أنّه قتل.

ابتسم محاولاً شكري على زيارتي، افتعل ضحكة جافّة وسألني: لم تصدِّقي الخبر، أليس كذلك؟

قلتُ: أتمنّى لو تكون بريئاً...

هزّ رأسه علامة النفي وقال بصوتٍ مهزوم: لقد قتلته حقّاً.

ـ سليم، أُريد أن أسمعك...

ـ هذا لن يغيّر من الحقيقة بشيء.

ـ أعرف، لكنّي مصمِّمة على سماعك.

أخذَ نَفَساً عميقاً. يبدو أنّه يرغب في البوح لأيِّ شخص، حتّى لو وقف أمام مرآة وخاطب صورته. تدفّق منه الكلام كما لو أنّه يحكي تحت تأثير مخدِّر، وجدتني أجد صعوبة في تصديقه، لا

بل كنتُ أُجهد نفسي لأصدِّقه شيئاً فشيئاً.

تجمَّد نظره على بقعة عفن في سقف الغرفة، قال ساخراً: هكذا صارت حياتي بقعة عفن، تعفّنتُ كلّيّاً، كلّيّاً. أنتِ تعرفينني، طوال عمري كنتُ مُسالِماً، لا أعداء لي. للأسف شريف، أقولها بصدق، لأنَّ الشرفاء في هذا الزمن يجب أن يتأسّفوا لكونهم شرفاء. ورثت عن والدي بيتاً جميلاً، لكنّه قديم، استدنتُ قرضاً من المصرف كي أرمِّمه وأسكنه حين أقرِّر الزواج. تنهَّد وعكس وجهه ألماً حادّاً، تابع كلامه بصوتٍ واهن متعب: لكن لسوء الحظ، اقتحم الشيطان حياتي، فقد طلب إليَّ أحد الأصدقاء أن أؤجِّر بيتي لقريب له، بدت لي هذه الفكرة معقولة، كنتُ أحتاج إلى المال لأُسدِّد القرض، فلِمَ لا أستفيد من تأجير البيت. وكان شرطي واضحاً وهو أن يترك المؤجِّر البيت حالما أطلبه.

منذ الأشهر الأُولى أدركتُ أنّي وقعتُ في أنياب ذئب، وأنَّ هذا المستأجر أحطّ خلق اللّه. كان مُطلّقاً، لديه طفلتان أرسلهما لدارِ للأيتام، وعرفتُ أنّه يستغلّ بيتي للدعارة، إذ يُعيره لأصدقائه العازبين الذين يلتقون بالعاهرات في بيتي!

ولأنّي رجل متحضّر فقد لجأت إلى القضاء. ياه، يا للمهزلة... أتعرفين ما غاية القضاء؟ سأقول لك، غايته تدمير الإنسان روحيّاً. هذا ما ثبتَ لي. حدّق سليم فجأة في عينيّ ليختبرني إن كنتُ أصدِّقه أم لا. قال لي وقد وصلني للتوّ احتراق روحه!

- تصوَّري ماذا قال لي المحامي. كرَّر تلك العبارة مراراً. قال بأنّي محظوظ، لأنّه وضع الدعوى عند قاضٍ يأكل! قاضٍ

يأكل، تعبير جديد ومُبتكر مُضاف إلى لغتنا الغنيّة. يبدو أنَّ هناك قضاة يأكلون، وقضاة يتّبعون ريجيماً!

أشعل سيجارة، دخّن بشراهة. نظري متعلّق بتسمات وجهه التي تشوَّهت من القسوة والمعاناة. استأنف كلامه وقد بدت كلماته يتعثّر بعضها ببعض... يا،، كم يتعذّب سليم بعد أن صار قاتلاً...

ـ هل تعرفين معنى أن تمرَّ أيّامك وسنواتك كما لو أنّك تعيشين كابوساً. صارت حياتي انتظاراً طويلاً مدمِّراً، انتظار أن يحكم القاضي بخروج المستأجر من بيتي. انطفأ حُلمي بالزواج، فأيّ فتاة ستقبل بالزواج منّي إن لم يكن لديَّ بيت مستقلّ، لا يمكن أن أحشرها في بيت ضيِّق مع أُمّي وأخوتي...

القاضي يأكل، وأنا أُطعمه. صرتُ أبيع لوحاتي لأُطعم القاضي، وغرقت بسلسلة لا تنتهي من الدروس الخصوصيّة لأجمع المبالغ الكبيرة وأُقدِّمها للقاضي... الكارثة أنّني صاحب حقّ، فتأمَّلي أنَّ صاحب الحقّ لا يشفع له حقّه، بل يجب أن يدفع رشوة إثر رشوة كي يصل إلى حقّه!

كنتُ أتأمَّله من دون أن يرفَّ لي جفن. أشعل سيجارة واستأنف كلامه مستعجلاً البوح من دون أن يترك لي مساحة لأسأله...

ـ لم أعد أنا، صرتُ أستيقظ من النوم مُسمَّماً بأحلامي، وغدتْ روحي المسالمة مثل لهبٍ من الغيظ مستعر دوماً. صرتُ أُلاحظ كيف يتشكَّل في داخلي إنسان جديد. أتشكَّل بالأحقاد

والانتظار، ولم يعد يشغلني سوى فكرة واحدة تسيطر عليَّ، هي كيف سأُخرج هذا الحقير من بيتي؟ إلى درجة صرتُ أفزع من نفسي، من تلك السلسلة من الخيالات الإجراميّة التي تغزو ذهني، ثم وجدتني مع مرور السنوات متيَّماً بفكرة القتل.

اصطكَّت أسنانه وارتجف فمه. يبدو أنّه أسير رعب أكبر من طاقته على الاحتمال. أشعل سيجارة من عقب أُخرى، هرش ذقنه غير الحليقة وعاد نظره ليستقرَّ فوق بقعة العفن الكبيرة على السقف. بدا هذه المرّة كأنَّه نسي وجودي تماماً وكأنّه يتحدَّث إلى نفسه...

ـ لم يخطر ببالي أن أقتل أبداً. كنتُ أعتقد أنَّ القتل سلوك خاصّ بالبشر المنحطِّين، لكن فداحة الظلم أفقدتني رُشدي. تمرُّ السنوات وأنا أطعم القاضي كي يعطيني حقّي، كي يطرد رجلاً حقيراً يحتلّ بيتي مستغلاً طيبتي وإنسانيّتي. والمحامي يقول لي بلا مبالاة: ماذا أفعل لك؟! هكذا وَضْع القضاء في بلدنا!

حاولتُ أن أعصر ذهني كي أجد وسيلة لقبول الواقع، لكن عبثاً، فإحساسي أنّي مطرود من بيتي جعل الحقد والغضب يستوليان عليّ تماماً. أكثر ما يغيظني أنّ هذا الصنف من البشر ـ أقصد القضاة والمحامين ـ ينظر إلى شقائي وكأنّه شيء طبيعيّ أو أمر ضروريّ لاستمرارهم. يبدو أنّهم يؤمنون بأنَّ الحياة مستحيلة من دون ظالم ومظلوم. لم يعد بمقدوري قبول تلك المعاناة. وممّا زاد قهري أنَّ المستأجر الحقير كان يلاحقني كلّما التقيته بنظرات ساخرة ويتفرّس بوجهي بوقاحة.

فجأة طفحت عيناه بالدموع، بدا كأنّه يتسوَّل تعاطفي، قال بصوتٍ مرتعش:

ـ المرء لا يصبحُ مجرماً بين ليلة وضُحاها. ياه، يجب أن نُسحق لأمد طويل كي نتحوَّل إلى مجرمين.

ترك دموعه تسيل في أخاديد وجهه الذي شاخَ قبل الأوان.

فكَّرتُ في كلامه: الإحساس بالعجز والظلم يولِّدا الجريمة. نبّهته إلى أنَّ إصبعه ستحترق بعقب السيجارة، لم يبالِ، غبّ الدخان بشراهة كما لو أنّه يتمنّى الاختناق.

تحوّل صمته إلى همس: تصوَّري، ذات مساء كنتُ مسموم القلب. كنتُ أمشي على حافة التعاسة، وجدتني أقصد مكتب المحامي. أدهشني أنَّ النور مُضاء على الرغم من أنَّ الساعة تجاوزت العاشرة ليلاً. لم أستطع مقاومة رغبتي في زيارته، كنتُ أُريد أن أصرخ بوجهه: تسع سنوات وأنا أنتظر أن تُعيد إليّ بيتي وأن تُخرج رجلاً نصّاباً منه. تسع سنوات وأنا أُطعم القاضي وأُطعمك... ألم يحن الوقت لتموتا من التخمة!

كان الباب موارباً، سمعتُ صوت ضحكات وتعليقات، لم أفهم منها شيئاً، ومن شقّ الباب رأيت أربع قضاة، كنتُ قد عرفتهم من تردُّدي لسنوات على المحكمة، ثمّ بدأ المحامي يُعطي كلّ واحد منهم رزمة ضخمة من المال... تذكَّرت المرّة الأُولى التي قال لي المحامي: أنتَ محظوظ لأنَّ دعواك عند قاضٍ يأكل!

في تلك اللحظة وأنا أقف في عتمة الظلم، شهدتُ ولادة فكرة الجريمة... أهؤلاء سيحقّقون العدالة؟! أيُّ مغفّل أنا! أخرجني إحساسي المستمرّ بالأذى عن طوري، وجعل فؤادي متحجِّراً.

صرتُ عاجزاً عن الحبّ، عن الإحساس بالعطف والرقّة. صرتُ أتهرَّب من أولاد أُختي حين يزوروننا. أتجاهل نظرات العتب الحزينة في عيون أطفال كانوا متعلّقين بي وينادونني خالو... صرتُ: هو. يسألون: أهو هنا؟ ليبتعدوا عن غرفتي، صرتُ أُخيفهم بوجهي المتجهّم وملامحه المرتشحة بالحقد.

إلى متى سأحمل بداخلي هذا الجحيم المزدوج؟! لهفتي إلى دخول بيتي وقهري بأنَّ الزمن يمرّ وأنا عاجز عن كسب الدعوى، لأنَّ بطن القاضي تتّسع لكرة أرضيّة ولا تُتخم...

نظر سليم في عينيّ، يا لهول الحزن في عينيه... بأيّ طريقة كنتُ أنظر إليه حتّى انفجر بالبكاء كطفلٍ صغير... لم أكن مجرَّد متعاطفة معه بل شعرتُ كم هو نبيل... لقد دُفع إلى ارتكاب الجريمة. حشروه في زاوية ضيّقة، شدَّدوا عليه الخناق فلم يجد أمامه وسيلة سوى الانتقام. وجدتني أسأله من سيدافع عنك في هذه الجريمة؟

أجفلني ردّ فعله، انفجر بضحك هستيريّ. كان أشبه بنشيج، بصرخات ألم، ثمّ صار يتلوّى من الضحك، وانحنى مسنداً راحتيه على بطنه متألّماً من نوبة الضحك وبصعوبة دفع نفسه للكلام. حاول الكلام مراراً، لكنّه كلّ مرّة يختنق بنوبة ضحك هستيري، كنتُ مصعوقة وأنا أتأمّله. وأخيراً تمكّن من صوغ عبارة:

ـ أأنتِ مجنونة؟! مَنْ سيُدافع عنّي! لم أعد أملك شيئاً لأُقدِّمه إلى القاضي كي يأكل!

الهزيمة

كان مضطراً إلى قتلهم كلّ يوم في خياله، كي يشعر بحرِّيّته، حين انتبه للمرّة الأولى إلى رغبته العميقة المدفونة في اللاوعي، تعلن عن نفسها بلا ذرّة خجل أو ندم. إنّه يرغب في موتهم كي يدشّن حرِّيَّته. استفظع أفكاره الإجراميّة، وعنّفَ نفسه بقسوة على رغبتها الشاذّة. أيعقل أن يكون سويّاً وهو يتمنّى موت أهله! خاصّة أنّهم أهل شرفاء، تفانوا في تربية أولادهم، وأهدوهم مالهم وعمرهم، ثمّ لاذوا بخريف العمر لا يرغبون في شيء من الحياة سوى بتقدير وعطف أولادهم.

يعمل فريد مُدرّساً في مدرسة ابتدائيّة، يحبّ تلامذته الأطفال، وهم يحبّونه وينادونه أحياناً: بابا فريد. يعيش مع والديه العجوزين اللذين يقتربان من عقدهما الثامن، وعمّته العانس التي تقترب من عقدها التاسع. البيت المتواضع ملكٌ للعمة وأخيها ـ والده ـ ولن يستطيع فريد الانفصال عن العجائز والاستقلال بمنزل خاصّ به، لأنّ راتبه الضحل بالكاد يكفي مصروفه الضروريّ.

فريد مولعٌ بالأناقة، يحبّ دوماً أن يكون مظهره حسناً وجذّاباً، واستطاع أن ينتزع لقب المدرّس الأنيق في المدرسة،

ووسط رفاقه، إذ لديه خبرة طويلة في سوق الألبسة المستعملة، فصار خبيراً بالأقمشة وأنواع الصوف، وربطات العنق، وحتى الأحذية. ذات يوم وُفِّق بحذاء من الشامواه البني، حذاء رائع الجمال، أنيق وفخم، وحين وصل إلى منزله وقلبه يخفق سعادة بغنيمته، وجد ورقة مجعّدة داخل الحذاء، كُتِب فيها أنّ هذا الحذاء سعره ألفا دولار، وهو خاص بالكونت الفلاني المقرّب من الأسرة المالكة البريطانيّة... ظلّ فريد لأيّام طويلة يلازمه شعور غريب. أحسّ أنّه الكونت، وأنّه رجل مهمّ ثريّ وذو شأن، ثم صار يتخيّل مبتسماً رحلة هذا الحذاء من القصر حتى تلك البسطة الفقيرة في سوق الألبسة والأحذية المستعملتين...

لم يسمح فريد للثياب الرخيصة أن تخذله أبداً، بل صار انتصاره الوحيد في الحياة هو ما يحقّقه من نجاح في تدريس التلاميذ الصغار، ونجاحه الباهر في سوق الألبسة المستعملة. محور حياته العجائز الثلاثة! يشعرونه بأنّهم يفعلون الأشياء لأجله: الطعام الذي يحبّه؛ عصير المشمش المُبرّد؛ ومربّى السفرجل بشرائحه الكبيرة القرمزيّة اللون. إنّه مكبّل بأفضالهم عليه، خاصّة أنّه لا يساهم إلاّ قليلاً في مصروف البيت. فراتبه الذي لا يتجاوز المئة والعشرين دولاراً في الشهر، بالكاد يكفي حاجاته الضروريّة.

رفاهيّته الوحيدة في الحياة تدخين الأركيلة، ولعب الورق، مع شلّة من أصدقائه المحبطين مثله، الفاقدي القدرة على الحلم...

بعد سنوات من العيش المشترك مع العجائز الثلاثة، استغرب فريد التحوّلات العميقة التي تحدث في روحه، فوجد نفسه أسير

حالة تمرّد عاصف، أشبه بريح غاضبة حوّلت صرح أخلاقه وضميره إلى رماد. . . وأحالت، كلّ القيم التي نشأ على تقديسها: حبّ الأهل واحترامهم واحترام كبار السن إلى حدّ تقديسهم. . . إلى ما هنالك من قيم راقية، تحوّلت كلّ هذه القيم إلى مجرّد هيكل فارغ من المعنى، إلى حطام. . . واعترف بعد صراع شرس مع أخلاقه المتآكلة بسموم الشيخوخة، بأنّهم يخنقونه بوجودهم، وأنّه يعجز تماماً عن خلق تصميم خاص لنفسه أساسه الحرّيّة.

يستيقظ فريد، وقبل أن يدخل عالم الصحو. تختنق أذناه بكلام العجائز، بصوتهم البطيء المتقطّع، كأنّه يتعثّر بشيء، وحديثهم الأبدي عن أمراض الشيخوخة. يحسّ منذ الصباح بنفاد صبر، وأنّ صدره امتلأ فجأة بغبار يعجز عن طرده. في البداية كان يبادرهم بالسلام الصباحي، ثمّ أحسّ بعجز حقيقي عن التفوه بتلك العبارة الآليّة العفويّة: صباح الخير!

وصار منذ الصباح يصرخ بوجوههم المجعّدة: أخفضوا صوت المذياع والتلفاز. . .

فيعترضون: لكنّ الصوت غير مرتفع!

فيزعق: بل مرتفع جدّاً، إلى حدّ أكاد أصاب بالصمم.

فيردّون على كلامه بحزن لا يخفى: طيّب نريد أن نسمع.

ما ذنبهم إذا خفّ سمعهم مع الزمن؟ كم مرّة دخل إلى المطبخ ليُعدّ قهوته، فيجد طقم أسنان أحدهم إلى جانب علبة البن، وذات يوم وجد طقم الأسنان ملامساً صحن الجبنة، فجنّ جنونه، وتخيّل أنّه يخنقهم واحداً بعد الآخر، بلا رحمة. . . لكنّه

يجبر نفسه دوماً على كتم غيظه... كان يعرف أنّ الحلّ الوحيد هو أن يستقلّ عنهم ويعيش وحده. ياه، ما أروع الحرِّيّة يا فريد! يحدّث نفسه وهو منساق إلى أحلام يقظة غنيّة: ما أروع أن يعيش في شقّة أنيقة صغيرة يملكها، تخصّه وحده، يمشي فيها عارياً، يغنّي، يصفّر، يتحدّث بالهاتف ساعة يشاء وبصوت مرتفع، من دون أن يشعر بأنّ آذانهم أشبه بلاقطات الصوت، تتلهّف إلى سماع كل كلمة يقولها.

ياه، يا فريد، ما أروع أن يكون لك منزلك الخاصّ، تستقبل فيه امرأة، أجل امرأة! يا سلام كيف تتحوّل المرأة في هذا البلد إلى مستحيل... كم من الليالي مرّت، وهو يحتضن وسادة، مفرغاً رغباته وأشواقه وهو يعصر الوسادة، ثمّ يبلّلها بدموع خيبته. هل ينسى ذلك الصيف التعيس. حين انتظر يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، أن يلبّي العجائز الثلاثة دعوة أحد الأقارب ليزوروهم في مصيف جميل... العجائز الثلاثة لا يرغبون في ترك البيت، ويخشون على صحّتهم من برد المصيف، لكن فريد استبسل في إقناعهم بأنّ هواء الجبل سوف يفيدهم، هدّه الكلام، بل صار يتمنّى لو يصفعهم كي يقتنعوا، ويقودهم عنوة إلى المصيف... وأخيراً اقتنعوا، وسافروا...

بلبله شعوره بالحرِّيّة، لم يصدّق أنّه وحيد في البيت! ياه، أيّ سحر للوحدة...

كانت مشاعر انجذاب قويّة قد نشأت بينه وبين أرملة تكبره بستٍّ، سنوات. جميلة ومثيرة. ويلوح على وجهها عذاب حرمان مديد من عالم الدفء والرجل... دعاها إلى شقّته. تمنّعت قليلاً،

بينما عيناها تفضحان شوقها العميق إليه. . . وتمكّن أخيراً من احتضان امرأة من لحم ودم، بدلاً من الوسادة! لكنّه، وبرغم سعادته بانتصاره العظيم ـ احتضان امرأة ـ فإنّ سعادته كانت مغشوشة، إذ كان يشعر كلّ لحظة بظلّهم يقطع عليه نشوته، واستمتاعه، ويرى كيفما تلفّت أشياءهم وأغراضهم، ويحسّ بنظراتهم الفاترة المؤنّبة، تطلّ من عيونهم التي أطّرتها القوس الشيخيّة الرماديّة، والملتحمة الشاحبة المجعّدة، عيون تجلده بنظرتها المؤنّبة:

«أتزني يا فريد! ألا تخجل من علاقتك الآثمة؟ أتدنّس بيتنا الشريف بمضاجعة امرأة لا يربطك بها رباط شرعي».

يعجز عن طردهم من خياله، فهو يتنفّس وجودهم باستمرار، وحين عادوا من المصيف انتابه شعور غريب حين رآهم، إذ بدا له أنّ السنين لا تهرمهم بل تهرمه، فها هو على أعتاب الأربعين، عاجز عن الانفصال عنهم، لا يمكنه أن يستأجر بيتاً ويتزوّج! كم يحسّ بالألم والإهانة وهو يعي كم يحبّ الأطفال، ويتمنّى لو يصير أباً. . . لكنّ الحياة هزمته، وأجبرته على تجاهل رغبته القويّة في الأبوّة.

مع الوقت صار يقع فريسة نُوَب عاصفة مباغتة، أشبه بحالات من نفاد صبر شامل، فينفجر بصراخ وقح لأبسط سبب، وغالباً بدون سبب.

يصرخ بهم بوقاحة من مجرّد سؤال يوجّهونه إليه. . . وتحلّل مع الزمن من قواعد السلوك والاحترام ولم يعد يشعر بأيّ ولاء لأحد، ولا بضرورة مراعاة أحد. . . إلى درجة أنّ هذا الوضع

المهين من قهره المعيشي ولاإنسانيّة وضعه، وعمره الذي ينسلّ عاماً بعد عام، وهو يشارك العجائز حياتهم، جعله هذا الوضع التابع والمهين وقحاً وشرساً إلى درجة كان هو ذاته، يستغرب ما يصدر عنه. فكم من المرّات ردّ على لطفهم بالإهانة والتجريح، ثمّ يعصره الندم لأيّام، ويحاول أن يعوّض لهم بنُوَب مفتعلة من الاهتمام بهم، والسهر وسطهم ومحادثتهم، لكن سرعان ما تنفد طاقاته، ويعود إلى تشنّج غضبه ورفضه هذه الحياة.

خاف أن يفقد أعصابه مع الوقت، فلم يكن يشعر باستقلاليّته وإنسانيّته إلاّ حين يتشاجر معهم. صاروا ضحايا غضب روحه الملتهبة والمسحوقة، فإذا تثاءب أحدهم شعر بغضب عاصف، وإذا أصاب أحدهم الزكام واضطر إلى أن يتمخّط مراراً، انتفض ساخطاً لاعناً عيشه الحقير، وما عاد يطيق الجلوس معهم في الصالون، وهم متسمّرون في وضعيّة تبدو له أبديّة أمام شاشة التلفاز يتابعون برامج لا يطيقها، ويكفي أن يكبو أحدهم ويصدر شخيراً، حتى ينفجر غاضباً، ويصرخ: لماذا لا تغفون في فراشكم...

أحياناً يقضي وقتاً طويلاً ينقل نظره بين وجوههم الرخوة، بتجاعيد الشيخوخة، ورقابهم المتهدّلة، فيصل إلى نتيجة مؤكّدة دوماً أنّه يرغب في تفجير الدنيا... وصار يخاف إلى حدّ الذعر أنّهم يمثّلون له مستقبله، وأنّهم مرآة حياته... وها هو يحرق سنوات شبابه بحياة تافهة رتيبة ليس فيها أيّ بهجة، لا يشعر بإنسانيّته، وسيجد نفسه قريباً عجوزاً مثلهم...

كم نخر الحرمان روحه وجسده. كم يحسد الأوروبيّين، حيث تتمكّن مراهقة من اصطحاب عشيقها إلى غرفتها، بينما

والداها في الصالون يستمعان مبتسمان، إلى شهقات نشوتها. . .

يتساءل بغيظ والدموع تتزاحم في عينيه: أهؤلاء بشر، ونحن بشر! ما الذي يجرح العجائز إذا أحضر عشيقته إلى غرفته. . . إنّ الأرملة تنتظره بشوق، وكلاهما يبحث عن مكان، عن مجرّد سرير وأربعة جدران. . . كم يبلّله الخجل حين أجبرهما الحرمان على أن يمارسا الجنس واقفين في بناء على الهيكل ـ ذات ليل ـ وكيف انتفضا مذعورين معتقدين أنّهما بوغتا لكنّ الضجّة التي اقتحمت التحامهما كانت من جرذ. . . في تلك اللحظة حسد الجرذان والقطط والحيوانات على حرّيّتها!

أكثر ما يؤلمه أنّهم يسخرون من رغبته في الاستقلال عنهم، يقولون له صراحة: نحن نوفّر لك السكن، ولا نطلب إليك أن تدفع أيّ فاتورة. . . وأنت تقابل أفضالنا وعطاءاتنا بالإهانات! المساكين، يضطرون إلى هذا الكلام دفاعاً عن كرامتهم، حين ينفجر في وجوههم ساخطاً، متأفّفاً من ضجيج التلفاز، ومشمئزاً من منظر أقدامهم البشعة المشوّهة التي يرفعونها ويسندونها على كرسي صغير وهم يتفرّجون على التلفاز. يعجز عن تحمّل منظر أصابع أقدامهم المشوّهة، بأظافرها المتخشّبة من الفطور، وكعابها الخشنة المشقّقة. . . أحياناً تمرّ أيّام، وخياله يعذّبه بصور أقدامهم!

ما ذنبهم إذا غدوا بشعين ومقزّزين في شيخوختهم!

ما ذنبهم إن كانت محاولة أيّ منهم لقياس ضغطه بالجهاز الصغير الذي يعمل على البطّاريّة ويُصْدِر صوتاً كالصفير، تجعله يفقد صوابه من الغضب!

أينتظر موتهم حقّاً كي يدشّن حرّيّته!

سعادته أن يناموا باكراً. بل كان برغم نعاسه يجبر نفسه على شرب عدّة فناجين من القهوة كي يسهر، حتى يقضي أطول وقت مع ذاته متحرّراً من وجودهم... غير متشوّش بحضورهم وأصواتهم وآهاتهم وتنهّداتهم... يحتاج من وقت إلى آخر، إلى أن ينقّي روحه من سموم حبّهم العائلي!

ما عاد قادراً على تحمّل وجودهم الذي يعني له فشله، ويرسّخ انهزامه في الحياة.

وما صار يقلقه حقّاً، ليس إحساسه الدائم أنّ أعماقه مكبّلة، وأنّهم حاضرون في دائرة وعيه حتى لو هرب منهم إلى آخر الدنيا، بل لأنّه صار بالفعل عاجزاً عن الرغبة في شيء، وعن حبّ شيء. لكأنّ شيخوخة الروح تُعدي. لقد صار مثلهم، مُطفأ الرغبات، لا شهوات لديه، ضمرت غدد الحياة فيه، ونسي أنّه شابّ، فالحرمان المديد، والانتظار اللامجدي، أوصلاه إلى حالة من الزهد.

لكن كم من اللحظات النادرة، المنفلتة من جحيم غضبه، كم هي نقيّة تلك اللحظات، حين تصفو نفسه، وتتحرّر من الغضب والحقد والرفض، ينزوي بنفسه مُطرقاً بخجل، متسائلاً من أعماق وجدانه: أينتظر موتهم حقّاً! أهو حقّاً سيّئ وعاقّ إلى هذه الدرجة؟! أم أنّ نمط الحياة البائس واللاإنساني، وراتب الاحتقار في هذا البلد، يُجبران الكثيرين على الحلم بموت الأهل ـ الجيل الأول ـ كي يعيش الأبناء! فالحياة لا تتسع لهم معاً. كلا الجيلين ضحيّة مسكينة، ظروف لاإنسانيّة تجبر الأبناء على أن يظلّوا تابعين للأهل مدى الحياة، وأحياناً يكون العكس الصحيح!

كم يحسُّ بالمهانة والعار لأنّه لا يستطيع الاستقلال بحياته عنهم، فراتبه كسيح وعاجز، والقدر يسخر منهم ومنه، فيطيل عمرهم، ويراكم سنواتٍ زائدة في عمرهم، وتبدو حالتهم الصحّيّة ممتازة ومستقرّة، أمّا هو فقد دخل بامتياز خانة مرضى القلب المُصابين بنقص التروية وارتفاع الضغط الشرياني!

إنَّ سنوات عمرهم الزائدة أشبه بجدار يزداد ارتفاعاً عاماً بعد عام؛ جدار يعزله عن أحلام شبابه، بأن يكون لديه منزل وزوجة وأطفال. . .

وحده فزع ليلة الزلزال جعله يُصاب بذعر حقيقيّ، ويُعيد فهمه إلى حياته، فقد استيقظ أهل المدينة الرابعة فجراً على هزّة أرضيّة عنيفة. للحظة مرَّ خاطر خبيث بذهنه. إنَّ قلوب العجائز ستعجز عن مقاومة ذعر الهزّة الأرضيّة. رآهم، كيف يتدحرجون على الدرج مذعورين، وبدا منظرهم مضحكاً برغم أنّه يرتعش من الخوف وهو يسمع ضجيج سقوط اللّوحات والصحون. . .

لم ينتبه إلى أنّه فقد الوعي، وسقط عند العتبة الأخيرة للدرج. . . حين فتح عينيه أحسَّ أنّه طافٍ في فراغ. . . سرير غريب، وغرفة غريبة، ووجوه حفظها بتفاصيل تجاعيدها. . . وجوه محبّة تحدّق فيه بحنان. . . أدرك أخيراً أنّه في المشفى. تقدَّم منه الطبيب ليخبره أنّه فقد وعيه وهو ينزل الدرج ليلة الهزّة الأرضيّة، وأنَّ حالته ليست بسيطة بل يحتاج إلى جراحة في قلبه. . .

أغمض عينيه هارباً من وجه الطبيب ووجوه العجائز، مستسلماً برضىً تام بالهزيمة.